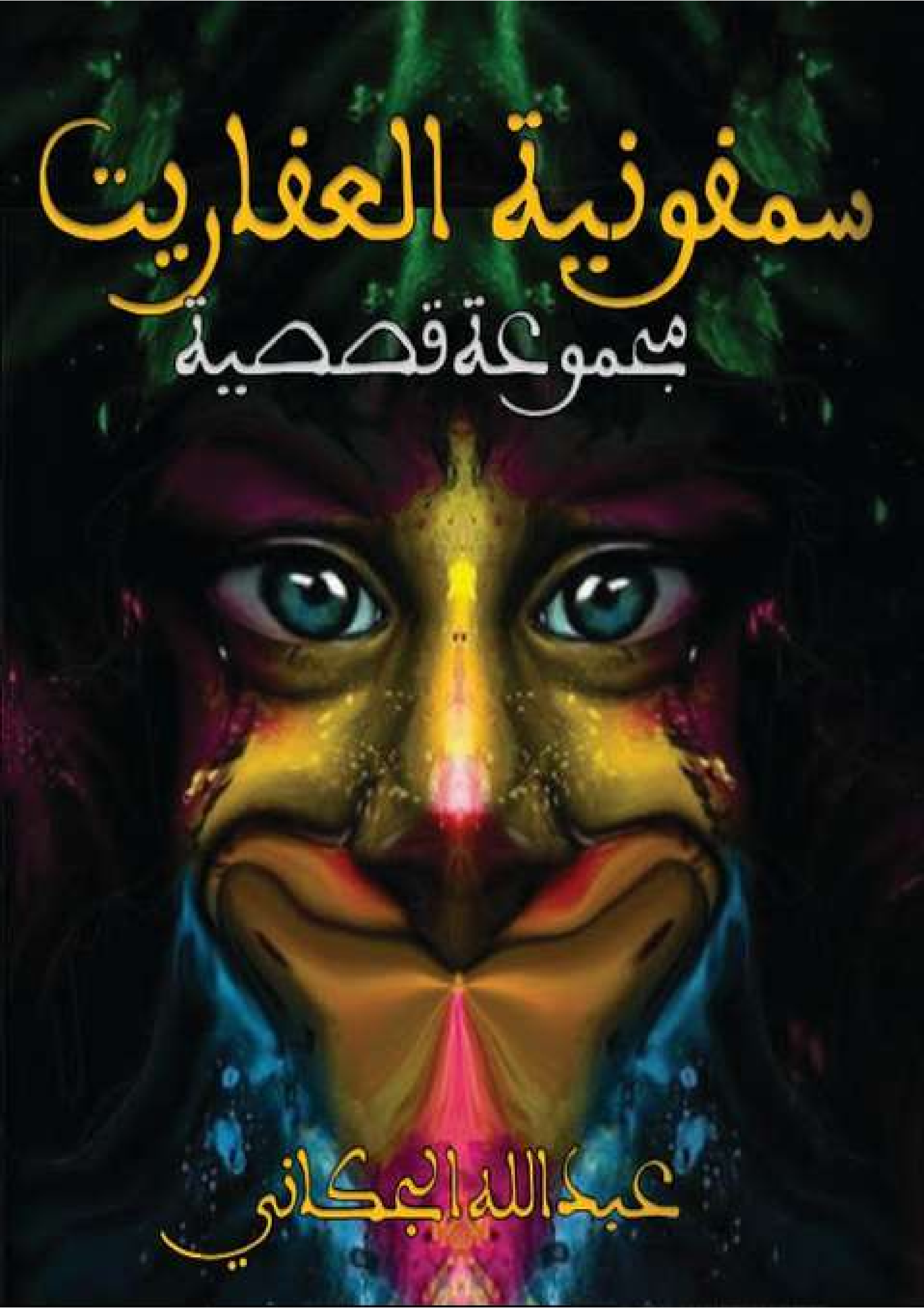
سمفونية العفاريت
مجموعة قصصية
عبد الله البكاني

سمفونية العفاريت

مجموعة قصصية

سمفونية العفاريت

عبدالله البكاني

الكتـــاب
سمفونية العفاريت
الكـاتـــب
عبدالله الجكــاني
التصنيـــف
مجموعة قصصية..
التنسيق الداخلي ولوحة الغلاف
عبدالله الجكــاني
تصميم الغلاف
أنوار الوردميشي
الطبعـــة
الأولى، 2018
الترقيم الدولـــي
ISBN :978-9920-680-02-8
رقم الإيداع
2019MO2295
البريد الإلكتروني
distributionstisrasse@gmail.com
editiontisrasse@gmail.com

All rights reserved. Except for brief quotations in a review, this book or any part thereof, may not be reproduced, stored in or introduced into a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means; electronic, mechanical , photocopying, recording or otherwise, without the prior written of the author.

دار تسراس للنشر والتوزيع
ⵜⵉⵅⵎⵎⵉ ⵏ ⵜⵥⵔⵉⵅⵉⵏ ⵜⵉⵙⵔⴰⵙ
EDITIONS TISRASSE

إهداء

لكل من ظلت قصصه حبيسة مسوداته.. لقد كنت مثلك في ما مضى
لكنك الآن تقرأ إهدائي.. بإمكانك فعلها أيضا! ..

محتويات الكتـــــــــاب

- حبائل الإغواء
- الجريمة و الإحسان
- تحت أضراس إسماعيل!..
- الحزن بلا سبب
- المظاهر الخداعة..
- صناعة السعادة!..
- التفاصيل الصغيرة
- تعارض..
- حماري الحمار
- أنا والشيطان..
- العين بالعين..
- نوكيا 1100
- عندما قررت الحيوانات أن تثور..
- بين بطاش وحمداش
- رزم االأحلام..
- الحقائق الكاذبة
- أنت قصتي

حبائل الإغواء

ذات يـوم.. اتخـذت قـرارا بوضـع حـد لهمـوم الحيـاة ومشـاكلها التـي ترهقني، وعلى الفور بدت علامات الفرح على شيطان صغير كان يشاهد التلفاز بجانبي..

فاقترب مني موسوسا بصوته الطفولي :

- أجل! أجل! الحياة بئيسة!هيا انتحر! انتحر!.

فالتفَتُّ إليه قائلا :

- أنا أذكى من أن أفكر في الانتـحـار يا شيـطـون!

فنظر إلي بذهول وسألني:

- أو تستطيع رؤيتي؟!

أجبته ساخرا :

- أجل، مذ كنت تعملها في الحفاظات..

عندئذ خرس لسان الشيطان الصغير، فيما كنت أراقب نظرته وهي تنكسـر ببطء وتتحـول إلـى دمـوع، ثـم عـاد إلـى مشـاهدة التلفـاز حزينـا مطأطأ الرأس..

أشفقت عليه، وقررت أن أعطيه فرصة أخرى لإغوائي جبرا لخاطره.. فقلت له:

- إني أنوي السفر عبر الزمن ستين سنة إلى الأمام؛ أريد أن أصبح شيخا وأرتاح، هلا رافقتني؟

حينها ابتسم العفريت الصغير ثم تمسك بي وتلاشينا عبر الزمن..

تغير بنا المكان إلى صالة فسيحة تطل على مسبح كبير.. فصاح الشيطان وقد صار كهلا:

- مرحى لقد أصبحنا أثرياء!.

حاولت أن أبتسم، لكن ملامحي الشمطاء حالت دون ذلك! حاولت الوقوف ولم أستطع!.. استغرقت دقيقة كاملة لألتفت وأجد كومة من الدواء بجانبي!.. وقفت بصعوبة؛ فسقطت حفاظتي!.. حينها صاح الشيطان فرحا:

- مرحى! لقد رأيتك بالحفاظات كما رأيتني! أحب الزمن حين يدور!..

حاولت المشي فلم أقو! حاولت الاستنجاد بمن هناك، لكن صوتي خانني!.. فجأة دخل طفل صغير مقبلا علي بلعبته، ثم تبعته امرأة شابة تنهره وتقول:

- تعال إلى هنا يا بني!.. اترك عنك أبي إنه مريض لا طاقة له بالأطفال!. .

فاكتشفت أن الشابة ابنتي وأن الطفل حفيدي!.. ومع ذلك، لا أحد يؤنسني!.. تخلى عني الجميع! الأطفال مع ألعابهم، والكبار مع أحبائهم، وأنا وحيد مريض!.. ثم ما نفع الثراء مع العجز؟!.. والأدهى من ذالك كله، ارتدائي للحفاظات! تبا!..

التفَتُّ إلى الجني سائلا:

- أين هي زوجتي ياترى؟!

فأشار إلى صورة عجوز حولاء على الحائط قائلا:

- لعلها هي! ولعلها ماتت منذ زمن!..

أجبته:

- لا! لا أعتقد أن لي ذوقا سيئا في الاختيار! هيا بنا يجب أن نعود إلى شبابنا!..

ابتسم الشيطان مجددا، وبرقت عيناه:

- مرحى! إنه أفضل اختيار! هناك أستطيع إغواءك، أما وأنت شيخ عاجز عن السير، عاجز عن الكلام، عاجز عن الحراك، عاجز عن النكاح، فكيف لي أن أغويك؟!.. لنعد.. لكن، فلنأخذ سيلفي أولا!..

الجريمة والإحسان

بعـد أن انتهيـت مـن أعمـالي وانشـغالاتي، وتحـررت مـن قيـود التزاماتي؛ قررت أن أتفرغ له، وأراقبه بمنتهى الارتياح..

صعدت إلى العلية حيث صادفته آخر مرة، وأنرت سراجا لأَقْشِعَ ما اكتنفها من ظلام .. وما هي إلا لحظات يسيرة حتى لمحته على أريكة عند زاوية الجدار؛ فاقتربت منه على مهل، وعمدت إلى كرسي عتيق من أيام آبائي الأولين، ثم جلست أمامه وأسندت مرافقي على ركبتي وكلي انتباه لهذا المنبوذ اللعين..

كان يحرك أذنيه الطويلتين الدقيقتين.. يسرع في تحركاته لثانية، ويتوقـف لثـانيتين.. كنـت أسـأل نفسـي : تـرى بـمَ يفكـر الآن؟ مـا هـي اهتماماتـه ؟ مـاهي انشـغالاته ؟ أتـراه يعـي بمـا أعيـه؟ أيَخْتَلِجُـهُ مـا يختلجني من أحاسيس؟!

توقفت عن طرح الأسئلة لما أيقنت استحالة حصولي على الأجوبة، بيْدَ أنني كنت أعرف أنه عدو النساء ومرعبهم الأول.. ترى مالذي يخيفهن منه رغم حجمه الصغير؟!.. أذلك بسبب ملمس أطرافه الخشن؟! أم ربما لِقُبْحِ منظره القذر؟! ..

في تلك اللحظة عاتبت نفسي على وصفي إياه بالقذر ، فقطبت حاجبي متأسفا وقررت أن أغير نظرتي له وألغيَ أحكامي المسبقة عنه.. فمددت يدي إليه، وحملته في كفي وأنا أداعب جلده البني الرقيق بلطف وحنان..

كانت ملامحي تنقبض جراء اشمئزازي من منظره القبيح، لكنني أرخيتها بقوة ورسمت ابتسامة على وجهي قهرا عما يملأني من نفور.. لاحظ الصرصور ابتسامتي؛ فابتسم بدوره ونطق وفي عينيه معالم الامتنان:

- لطالما ظننت أن أهل الصين وحدهم من يحبني، لكنني اكتشفت اللحظةَ أن هناك مغربيا يُعِزُّني!.. إن أمرك لغريب!

ضحكت مستظرفا ما قاله قاطن المجاري.. ثم أجبته مداهنا:

- الصينيون لا يحبونك لذاتك بل لأكلك.. أما أنا فأحبك لذاتك!

سكت لهنيهة وقد تألقت عيناه دمعا تحت نور السراج.. ثم قال بنبرة قد أحالها التأثر إلى حشرجة واضحة:

- يآآه لقد.. لقد سحرتني بلطفك.. و.. ونبلك!..

انعقد لسانه وقد توالت دموعه انهمارا على كفي.. قبل أن يتابع قائلا:

- بما أنك تحبني.. فإنني قررت أن أجازيَك بما هو أكبر من حبك لي!.. لقد قررت أن أهديك نفسي لتأكلني!..

اجتاحتني قشعريرة مما سمعته منه، لكنني تظاهرت بالثبات كيلا أحرجه.. وسألته متعجبا:

- ألهذه الدرجة تضحي بنفسك من أجلي؟!.. هل يحمل قلبك الصغير كل هذا النبل الذي يفتقده الكثير من البشر؟!

أجابني وقد امتزجت رقة عواطفه بصدق حزمه:

- من الصعب أن تجد من يحبك بإخلاص! ونحن معشر الصراصير نرد الإحسان بما يفوقه.. أرجوك حقق لي رغبتي أريد أن أموت بين يديك!..

استويت على الكرسي متكئا، وحملت الصرصور إلى مستوى عينيَّ ثم شرعت في الاحتيال عليه لافتا نظره إلى تَهَوُّرِه:

- اسمع يا صاح!.. إن في مطلبك مبالغة وخسرانا مبينا! لن يستفيد أحد منا من فقدانه للآخر، أما وأنت حي تُرزقُ؛ فسنتمكن من رؤية بعضنا، وستستمر صداقتنا إلى أن أموت أو تموت!..

فشهق وقد ضاقت عيناه اللتان عجلتا بالإفراج عن عَبَراتِه مجددا.. ثم صاح بانفعال أكبر:

- كلا!.. كلا!.. ماذا لو عجل الموت بأحدنا دوننا عن الآخر! كيف لي أن ألقاك بعدها؟!

ثم أجهش بالبكاء وتابع بصوت يقطعه النحيب:

- لكنك إن أكلتني صرتُ جزءا منكَ، وظل جزء مني فيك يلازمك في السراء والضراء، في الدنيا والآخرة.. سنكون كيانا واحدا!.. كيانا واحدا لا يفترق!.. أرجوك لا ترفض!

أطرقت رأسي حين أذهلني عمق عواطفه، وسكتت لبرهة أفكر في مخرج لي من ورطتي.. ولما أيقنت من انعدام منفذ لي من ذلك الموقف الحساس؛ آثرت ألا أجرح مشاعره، وقررت أن أُنَفِّذ له طلبه.. فنظرت إليه وأنا لا أملك إلا الإشفاق عليه، وقلت له بلكنة قد تسللت إليها أمارات الحزن:

- فلتغمض عينيك!.. سأحقق لك أمنيتك الآن!..

فأغمضهما على الفور، لكنه سرعان ما فتحهما مبتسما:

- مهلا لقد نسيت أن أقول لك شيئا!.. أنا أحبك!..

تأثرت لقوله، وخشيت على نفسي من التعلق به؛ فسارعت وفصلت رأسه عن جسده.. لقد مات الآن، مات وأنا قاتله.. أحسست بالذنب أَنْ خدعته، حين كذبت عليه، وادعيت أني أحبُّه.. لكنني وبعد تفكير عميق قررت أن آكله،

لقـد كانـت تلـك الطريقـة الوحيـدة التـي سـتكفِّر عـن ذنبـي وتحقق له أمنيته في الآن ذاته..

لكـن، وقبـل أن أفعـل، شـعرت بـوخز فـي قـدمي اليمنـى.. نظـرتُ إليهـا وفوجئـت بمجموعـة مـن النمـل تتسـلقها وتصـرخ في وجهي:

- أرجوك لا تحرمنا منه!.. نحن جياع!..

أجبتهم متأسفا:

- لا أستطيع!.. لقد وعدته بأكله قبل أن يموت!

فردوا قائلين:

- ألا يكفيـك أنـك خدعتـه بكلامـك المعسـول؟! ألا يكفيـك أنـك كـذبت عليـه وصـدقك؟! ألا يكفيـك أنـك سـرقت قلبه ثم قتلته؟!

خرس لساني، وسلمتهم جثمان الفقيد.. هكذا أمكنني أن أحول شري إلى إحسان!

تحت أضراس إسماعيل!..

استيقظت من سباتي العميق وأنا أنظر إلى تلك الخبزة المستديرة.. نعم أقصد خبزة القمح الصغيرة التي ما يزال أثر النار باديا على معالمها.. كنت أحَدِّقُ النظر فيها وكأنني أراها لأول مرة في حياتي.. ومع أنني استيقظت جائعا، كنت أجاهد نفسي بالحرص على عدم أكلها، مانعا يدي المترددة من الوصول إليها..

حاولت أن أعاملها على نحو يليق بمكانتها الاجتماعية، فصنعت لها كرسيا صغيرا قرب الباب وتركتها عليه بعد أن فرشت لها شالا من حرير، وصرت ألقي عليها التحايا في كل صباح ومساء، وعند كل ولوج و خروج..

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي غير فكري، وقلب كياني المعرفي رأسا على عقب.. فعندما كنت أعقد خيوط حذائي مستعدا للذهاب إلى كليتي، سمعت صوتا رقيقا يناديني:

- يا عبد الله! يا عبد الله!

أوجست من ذلك الصوت خيفة في بادئ الأمر! ذلك أني اعتقدت أنها عفاريت أو ما شابه، بَيْد أنني أدركت بعد لحظات قليلة أن الصوت آت من داخل الخبزة.. وما إن مددت يدي التي لا تتوقف عن الارتعاش لالتقاطها؛ حتى

أحسست بخفة في الجاذبية، وريح قوية رجت لها أركان الغرفة.. قبل أن أجد نفسي وسط كثبان بيضاء كالقطن، وحولي مجموعة من الكائنات الصغيرة التي تحملق في تفاصيل جسدي باستغراب واندهاش!..

هممت بالهرب من شدة الذعر الذي أصابني، وسعيت إلى الركض بكل ما أملكه من طاقتي.. إلا أن تضاريس الكثبان التي كانت تتمدد وتنقبض كالأسَرَّةِ الهزّازة؛ تسبَّبَت في سقوطي، ثم تقاذفتني كما تتقاذف الجدران كرةً نطّاطة..

استقر بي التقاذف على كُثبة مرتفعة وقد استسلمت لقلة حيلتي، ثم استلقيت ممددا وأنا أتأمل الكثبان الشاسعة التي تمتد إلى الأفق، وإلى لون سمائها الحمراء حُمرَةَ الشفق.. إلى أن أحاطت بي الكائنات مرة أخرى، وأخذوا يتأملونني من جديد..

كانت رؤوسهم كرؤوس السلاحف، وقوامهم كقوام القطط، وحركاتهم كحركاتنا بني الإنسان.. بادلتهم النظرات مجاهدا خوفي لبضعة دقائق، قبل أن يدنوَ مني أصغرهم وهو يقول مطَمْئِنًا:

- لا تخف! فأنا مجرد فكرة، و هؤلاء إخواني وأخواتي من الأفكار.. إنك الآن داخلَ "الخبزة" مركز أفكار العرب..

فحدجتـه بنظـرات لا تخلـوا مـن الارتيـاب! وطفقـت أنظـر إلـى تقاسـيم وجهـه البريئـة مسـتغربا مـا تلفَّـظ بـه مـن هُـراء! ثـم قلت مرددا وأنا أقرص نفسي:

- أنا أحلم بالتأكيد!.. أنا أحلم بالتأكيد!

تعالـت أصـوات الكائنـات الغريبـة بالضـحك وهـي تـنط زُمَـراً زُمَراً في مشهد عجيب! ونطق ذو لحية منهم بصوت مَهيب:

- إنـك لا تحلـم أيهـا الإنسـان!.. أنـتَ فـي الحقيقـة التـي يمنعكَ زَيْفُ عالمك من إدراكها!.

رددت عليه مستغربا:

- بالتأكيد أنا أحلم!

ثـم تابعـت بعـدما تفقـدت ببصـري متفحصـا أرجـاء ذلـك المحـيط الفسيح:

- أوْ لعلني في برنامج من برامج الكاميرا الخفية!..

فردَّ الملتحي المهيب بهدوء وتؤدة:

- أنت داخل الخبزة يا إنسان!.. صدق أولا تصدق!

أمسـكت عـن الكـلام باحثـا عـن تفسـير منطقـي فـي عـالم لا يمـت إلـى المنطـق بصـلة!.. ثـم صـرخت فـي وجـوههم وكـأنني أماطـل القـدر بمـا أملكـه مـن رشـد خوفـا ممـا قـد يصـيبني بالجنون:

- عـن أي خبـز أو هـراء تتكلمـون؟! إنـه لـيس فـي الخبـز غيـر اللبـاب!.. ثـم مـا علاقـة الخبـزة بـالفكر العربـي و مـا دخلها!؟..

فأجابتني إحداهن بصوت أنثوي واضح النبرات:

- تفكيـركم فـي الخبـز يفـوق كـل شـيء سـواه! وبمـا أننـا أفكـاركم أصـبحنا سـجناء داخـل هـذه الخبـزة.. عليـك أن تعتــرف بأنــه محــور فكــركم، محــور تحركــاتكم وســكناتكم، محــور ســلامكم وصــراعاتكم.. حتــى الثـورات التـي قمـتم بهـا لـم تكـن مـن أجـل المبـادئ أو القـيم كمـا تـدَّعون، بـل مـن أجـل تـوفير و تـأمين طـرق حصـولكم و اسـتهلاككم للخبـز!.. قـد تسـتغنون عـن أي شيء إلا عنه!..

أطرقـت رأسـي حـين أصـاب كلامهـا جـزءا مـن قناعـاتي، وأدركـت حينهـا أننـي قـد أجـد بـين طيـات عـالَمهم المجنـون مـن الحكمـة مـا لا أجـده فـي نفـاق عـالمي المغبـون.. فابتسـمت فـي وجوههم ابتسامة المستسلم، ومددت لهم يدي مصافحا...

أمضــيت أيامــا وشــهورا داخــل الخبــزة، أتعلــم مــن تلــك الأفكـار المتجسـدة وأكتشـف مـن عالمهـا مـا كنـت أجهلـه عـن عــالمي.. لاعبــتُ صــغارهم، وصــاحبتُ كبــارهم، وجالســت شـيوخهم.. فاتسـعت مـداركي وتصـوراتي، وتغيـرت مفـاهيمي وقناعاتي..وكـان أغـرب مـا قابلـت فـي رحلتـي المجنونـة تلـك،

ثـلاث أفكـار لـن أنسى كلامها مـا حييـت.. فكـرة ملتحيـة مزخرفـة، وفكـرة ببدلـة وربطـة عنـق، وفكـرة جميلـة بلبـاس فاضح..

أذكر أنني بادرت الفكرة الملتحية بالسؤال قائلا:

- ما سبب سجنكِ هنا؟!

لتجيبني وعلى وجهها أسف وحسرة لا تخفى على العيون:

- أنـا فكـرة الـذي اسـتغل الـدين مخادعـا عقـول الجهـال مـن المـؤمنين ليرتقـي أعلـى السـلالم الاجتماعيـة ويحقـق بـذلك نصـيبا كبيـرا مـن الخبـز!.. يُكفِّـر مـن يشاء! و يُفَسِّق من يشاء! ويفتي كيفما شاء حبا في الشـهرة والظُّهـور! ولـو كـان عملـه للـه ماكنـت سـجينة هنا!..

ولمـا اكتنهـت الجـوهر مـن كلامهـا، التفـتُّ إلـى الفكـرة المتأنقـة في بدلتها، وسألتها بفضول أكبر:

- وأنتِ؟!.. ما الذي رماكِ في هذا السجن؟!

فأجابـت وهـي تُعَـدِّل ربطتهـا كخطيـب مفـوه يسـتعد لإلقـاء محاضرة:

- أنـا فكـرة السياسـي المحنـك الـذي يسـتقبل النـاس مبتسـما فـي وجـوههم، ويعـبس مكشِّـرا فـي ظهـورهم!.. الـذي يسـعى إلـى وجـودهم فـي تمَحُّنِـه، ويلعـن وجـودهم فـي تنعُّمـه!.. الـذي يبيـع المستضـعفين أوهـام

المستقبل بلسانه، ويستغل جهودهم لتعمير جِنانِه!..
إن صاحبي دجال كذاب يَحْرِمُ المسكين من خبزته؛
ليضيفها إلى ما سرقه من الخبز!..

أما الفكرة الجميلة العارية فلقد أعرضت عن النظر إليها، وبادرت إلى الكلام قبل أن أهُمَّ بسؤالها:

- أنا هنا لأن صاحبتي فضلت الخبز على كرامتها!

لأفهم عندئذ السبب الرئيس الذي يدفع النساء نحو البغاء، ويتولدَ لدي عزم حارق بضرورة إيجاد حل لهذه الأفكار من المأزق الذي زُجَّ بها فيه.. فأخبرتهم بصدق عزيمتي، وطلبت منهم طريقة تمكنني من الرجوع إلى عالمي.. فوافقوا على طلبي ولقنوني كيفية الخروج، بعدما أظهروا لي مكامن العِلَل ووصفوا لي سبل العلاج وعلموني المخططات الكفيلة بإصلاح أوضاع العرب السياسية والاجتماعية و الاقتصادية.. وبعد أن عقدوا علي آمال تحريرهم من سجنهم، وتوسموا في شخصي مخلِّصا لهم من همِّهِم، ودَّعتُهم وعُدتُ إلى عالمي في رمشة عين..

عدت إلى غرفتي والذهول يلُفُّني.. ذلك أنَّ ما أمضيته من شهور داخل الخبزة لا يعادل إلى عشرة دقائق في عالمنا.. فنظرتُ إلى الخبزة التي ما تزال مكانها، وقررت الخروج من البيت وإحضار أكبر مسؤول في حينا كي أدخله معي إلى عالم الخبزة ويشاهد بأم عينيه ما شاهدته هناك..

فتركت باب البيت مفتوحا من شدة حماسي وأطلقت ساقيَّ ركضا باتجاه البرلمان..

التقيت بالمسؤول بعد طول انتظار، وأقنعته بالمجيء بعدما حكيت له القصة بأكملها.. ولمَّا عدت إلى البيت برفقته، فوجئت بصديقي إسماعيل ينتظرني جالسا إلى منضدة المطبخ.. تجاهلته في بادئ الأمر ، لكنني عندما اكتشفت أن الخبزة غير موجودة في مكانها؛ سألته:

- إسماعيل!.. أين الخبزة الصغيرة التي كانت هنا؟!

لم يجبني، لكنه التفتَ برأسه مبتسما وفمه المملوء لا يتوقف عن المضغ.. لأدرك حينها أن الخبزة، وعالم الأفكار، وجميع مخططات الإنقاذ والتحرير ، انسحقت تحت أضراس إسماعيل!..

الحزن بلا سبب

جل الذين يعرفونني يعلمون أنني شخص كثير الابتسام.. يعتقدون أن عضلات خدي تتمدد لكل عشرة دقائق مفرجةً عن ابتسامة لسبب أو لدونه.. غير أنهم يجهلون أن لكل ابتسامة سببا لا يدركونه؛ ذلك السبب الذي يكون في غالب الأحيان نابعا من عالمي الخيالي الذي لا يدخل إليه سواي.. لطالما استغربت من الذين يقولون أن الضحك بلا سبب من قلة الأدب! بل ويكررون ذلك كلما عجزوا عن إدراك ما يدفع الآخرين إلى الضحك، ولو أنهم استعملوا أدمغتهم التي تكلّست من قلة الاستعمال ولو قليلا؛ لأدركوا أن كل ضحكة وابتسامة تنتج عن سبب؛ إذ من المستحيل أن نصل إلى نتيجة بلا مسبب.. سيقول العباقرة منكم أن الابتسامة المزيفة والضحكة الصفراء لا تحتاجان إلى سبب، لكن ما يدفع الناس إلى تزييف الابتسامات والتظاهر بالضحكات غالبا ما يكون مداهنةً أو جبرًا للخواطر أو خداعا للآخرين، وهذه في حد ذاتها أسباب حقيقية لا ينكرها عاقل، ولا يغفل عنها غافل.. فإن كان للضحك المزيف سبب، فكيف يُعقل ألا يكون للضحك الحقيقي سبب؟!

لكننـــي لا أنكـــر أن ابتســـاماتي المتكـــررة تضـــفي علـــى ملامحــي ظرافــة لا تعكــس شخصــيتي الحقيقيــة، الشــيء الــذي يــدفع الكثيــرين إلــى التجــرؤ واتهــامي بالبَلَــهِ والجنــون، قبــل أن ينتهــي بهــم المطــاف حقائبــا لِلَكمــاتى، أو ضــحايا لنطحــاتي!.. لهــذا الســبب قــررت ذات يــوم أن أتوقــف عــن الابتســام مــا استطعت، وأن أتظـاهر بـالحزن لكـيلا أضـطر إلـى تأديـب المزيـد مــن المتطفلــين.. فخرجــت مــن بيتــي كســير العينــين، شــاردا مغمومـا كعجـوز فـي التسـعين.. ومـررت بمحـاذاة إسـكاف الحـي الظريـــف متعمـــدا ألا أحييـــه تحيـــة الصـــباح.. فاســـتغرب الإسـكاف العجـوز أمـري، ونهـض عـن مقعـده وهـرع إلـي متفقـدا حالي:

- يا ولدي! مالي أراك عابسا وأنت الذي يبتسم دائما؟!

فالتفتُّ إليه.. ثم أعرضتُ عنه بجفاء مصطنع:

- إليـك عنـي يـا رجـل!.. إننـي فـي مشـكلة ولا رغبـة لـي في الحديث!..

تغيــرت ملامــح الإســكاف مــن الفضــول إلــى الإشــفاق، ثــم اعترض سبيلي وألَحَّ وهو يربت على كتفي:

- ومـا هـي هـذه المشـكلة يـا بنـي؟!.. افـتح لـي قلبـك، ربمـا ساعدتك على حلها!..

أجبته مراوغا:

- إنها كبيرة!.. إنها أكبر من أن تجد لها حلا!

ردَّ ناصحا:

- دع أمـورك فـي يـد الخـالق يـا بنـي!.. ابتسـم، تبايعـك السعادة ملكا!

فعقبت على قوله:

- إنك تقول هذا لأنك لا تحس بما أعانيه!..

ابتسم الإسكاف.. ثم زفر وتنهد قائلا:

- لقـد عانيـت أكثـر ممـا عـانى أي شـخص فـي هـذا البلـد يـابني! لـو أخبرتـك بقصـة حيـاتي التعيسـة لرأيـت أن مشكلتك لا تساوي شيئا أمامها!

رددت عليه معاندا:

- لا أظن ذلك؛ مشكلتي أكبر!..

فقال بنبرة يملأها التحدي:

- تراهن؟!

أجبته واثقا:

- نعم!.. لك عشرون درهما إن تأثرتُ بقصتك!..

سـكت الإسـكاف للحظـة، وأخـذ بيـدي نحـو دكانـه.. ثـم جلـس علـى مقعـده وشـرع فـي سـرد حكايتـه بعـد أن أخـذت مكانـا بجانبه:

- لقـد نشـأت فتـى يتيمـا أمرطـا!.. كنـت محرومـا مـن الأب!.. ومحرومـا مـن الأصـدقاء كـذلك! .. كلمـا هممـت

بـأن أنسـى يتمـي باللعـب مـع أقرانـي، ابتعـدوا عنـي وعيرونـي بـالأمرط!.. هـذه الإهانـات اسـتمرت معـي حتـى فـي المدرسـة!.. والأقسـى مـن ذلـك، أن أسـتاذا أهـانني أمـام الطـلاب بسـبب منظـري! فخرجـت باكيـا وأنـا أقسـم بـأغلظ الأيمـان أننـي لـن أعـود إلـى المدرسـة مجـددا!.. لكـن أمـي كانـت كـل شـيء!.. كانـت أمـي وأبـي!.. صـديقي الـذي يلعـب معـي!.. ومعلمتـي التـي تدرسـني!.. كانـت تهـدئ مـن روعـي، وتمسـح دمـوعي، وتحـن علـي مـن قسـوة الزمـان الـذي لا يـرحم!.. ذات يـوم رأيـت ولـدا يأكـل حلـوى؛ فطلبـت منهـا أن تبتـاع لـي واحـدة، لكـن فقرهـا حـال دون ذلـك؛ فخرجـت مـن البيـت غاضـبا متـذمرا كـأي طفـل صـغير لا يجـد مـا يريـده!.. وعنـدما عـدت، وجـدت حشـدا مـن الجيـران أمـام البيـت!.. كـان الصـراخ ونـواح النسـاء يتعـالى فـي السـماء فـي مشـهد رهيـب!.. لقـد توفيـت أمـي! ماتـت وهـي تعـد لـي قالبـا مـن الحلـوى!.. أذكـر أننـي بكيـت شـهرا متواصـلا جـراء ذلـك!.. وكيـف لا ولقـد صـرت وحيـدا.. وحيـدا، فقيـرا، حقيـرا ومنبـوذا.. لـم يتقبلنـي أحـد، ولـم يتبنـاني أحـد!.. وضـعوني فـي ملجـأ مـع الأيتـام.. وكمـا كنـت متوقعـا لـم يتقـرب منـي أحـد، ولـم يرغـب أحـد مـن الأطفـال فـي الحـديث إلـي، والأسـوء مـن ذلـك أنهـم التحقـوا جميعـا بعـائلات جديـدة إلاي!..

أغلقت الدولة الملجأ، وتركتني شريدا بين شوارع المدينة.. انتقلت من فشل إلى فشل، وصارت حياتي سلسلة من الفشل المتواصل؛ فضاع شبابي كما ضاعت طفولتي!.. تعبت كثيرا وشقيت، عملت وجمعت مالا على حساب جوعي وعرائي!.. تزوجت.. ثم صُدمت لما علمت أنني عاقر لا أنجب! فحُرمت من الأبناء كما حرمت من الآباء.. رغم ذلك أنجبت زوجتي! فكانت صدمة قاسية أن تعرضتُ للخيانة!.. اعترفَتْ بذنبها وأخذتُ منها الطفل كَرْها، حرصا مني على أن لا تضيع حياة البريء كما ضاعت حياتي!.. أخذته وحملته إلى قرية بعيدا عن كل ما يؤلمني!.. لكن حدث أن جرف سيل كوخنا وذهب بالطفل بعيدا.. أذكر أنني تابعته بعيناي باكيا وخداه المحمرتان كبرتقالتين تطفوان على المياه! شعرت بالعجز و...

قاطعت عزوز الإسكافي متأثرا:

- مهلا لا تكمل!.. لقد أشعرتني حقا بأن حزني لا يساوي شيئا أمام ما عايشته يا سيدي!..

ثم أخرجت العشرين درهما وسلمتها له.. فابتسم ودسها في جيب قميصه.. صمت قليلا وهو يحاول أن يتمالك ضحكته، ثم انفجر في وجهي مُقهقها:

- لقد خدعتك يا أبله!.. كيف صدقت ذلك يا بليد! متى سمعت قط شخصا يصف خدود طفل فقيد ببرتقالتين؟!..

شعر ت بالإهانة، لكنني تصنعت الضحك معاندا وأنا أخاطبه:

- أنا من خدعك! لم أكن أعاني من مشكلة أصلا، فقط كنت أتظاهر بالحزن!..

فرد الإسكاف دون أن يتوقف عن الضحك:

- الآن وبعد أن فقدت عشرين درهما، أصبح لديك عذر لتحزن! في المرة القادمة لا تخرج من بيتك إلا وأنت مبتسم، فالحزينون دوما ما يكونون عرضة للنصب والاحتيال يا بني!..

المظهر الخداع..

إن من أشد النقم على الرجل أن يكون عديم المال.. ذلك أنه قد يفرح على الرغم من جوع بطنه، وقد يصبر رغما عن بلاء جسده، لكنه لن يتحمل أبدا فراغ جيبه.. فهو ابن المادة، ولا يرتاح إلا بامتلاك شيء منها، بعكس المرأة التي خُلِقت من الرجل، والتي لا ترتاح إلا بامتلاك شيء منه، أو بامتلاكه كله.. صراحةً، ما قلته عن المرأة قبل ثانيتين، لست متأكدا من حقيقته، لكن ما قلته عن الرجل حقيقة مجربة وواقع سبق وأن تورطت في عيش أحداثه مرارا.. ولعل أبرز هذه المرات، يوم انقطعت بي السبل رفقة صديقي الجني سمعلوش..

سمعلوش هذا، عفريت في الخامسة من عمره، يجمع بين براءة الطفولة ودهاء الكهولة، تتَّسم أفكاره بمكر الثعالب، ويتميز عزمه بخصال المُحارِب.. ولعل هذا ما جعلني أقبل صداقته، وأتخذه واحدا من خلاني المقربين. لذلك كان من الطبيعي أن أرافقه إلى بلدة في أعالي جبال الأطلس رغبة في الاصطياف والاستجمام..

أذكــر أنــه كــان يومــا جمــيلا، أغوانــا بألحــان العصــافير الشــادية، وأغرانــا بتســلق الجبــل الــذي يطــاول عَنــان الســماء الصـافية.. فلـم نتـردد أمـام سـحر فتنتـه، وأخـذنا زادنـا سـائرين باتجــاه قمَّتــه.. ولمــا قاربــت الشــمس المغيــب انتهينــا مــن استكشـاف روائعـه، ونزلنـا عنـه وقـد علـق فـي ذهـن كـل منـا جمــال منــاظره.. إلا أن المنظــر الصــادم الــذي فوجئنــا بــه عنــد عودتنــا إلــى الخيمــة أنســانا كــل منظــر وقعــت عيوننــا عليــه، واكتشفنا فور رؤيته أننا صرنا في وضع لا يُحسد عليه..

لقــد اقــتحم اللصــوص خيمتنــا، وســرقوا زادنــا ومتاعنــا.. تركـوا الخيمـة ممزَّقـة خاويـة علـى عروشـها، وأحرقـوا أعصـابي رغـم جمودهـا.. أدركـت لحظتهـا أننـي فقـدت الرغبـة فـي التنـزه والإصــطياف؛ حــين ســرقوا مــالي وطعــامي مُحِلِّــين علــيَّ الجفـاف.. فنظـرت إلـى سـمعلوش غاضـبا، وصـرخت فـي وجهـه آمرا:

- فلتذهب ولتأتني بأولئك الأوغاد!

فكـف عـن اللعـب بِبَّطتـه البلاسـتيكية التـي كـان يجرهـا علـى الأرض.. وأجــاب والحــزن يطغــى علــى لهجتــه دون أن يلتفــت إلي:

- لا أستطيع!
- ماذا قلت؟!.. لا تستطيع؟!

فالتفت نصف التفاتة وهو يقول:

- أنـــا الآن خـــارج مقـــاطعتي، وأي تـــدخل لـــي هنـــا؛ سـيحيلني إلــى محكمــة العفاريــت!.. عــدا عــن ذلــك، دائمــا مــا ينهــاني أبــواي عــن التــدخل فــي القضــايا البشــرية!..وإن حــدث وســاعدتك فسيحبســانني لعــدة أشهر!

انفعلت لكلامه، وصرخت في وجهه غاضبا:

- تبا لهرائك!.. تبا لقوانينكم السخيفة!

ثـم ركلـت بطتـه الصـفراء اللعينـة بعيـدا، وراقبَهـا وهـي تتـدحرج نحـو صـخور المنحـدر وقـد انقطعـت أنفاسـه مـن الصـدمة.. قبـل أن يجهش بالبكاء وهو ينوح:

- بطتـــي! بطتـــي!.. أعـــد لـــي بطتـــي يـــا كـــاره الطفولـــة والأطفال!..

ترقّقـتُ لحالــه متــأثرا ببكائــه.. وســرت بخطــى متثاقلــة نحــو المنحدر، ثم جلبت له لعبته وجلست بجانبه ماسحا دموعه:

- خذ لعبتك!.. يا جبان!

نـزع بطتـه مـن يـدي بلهفـة مشـتاق، وابتسـم بعفويـة الأطفـال وهو يقول:

- لست جبانا!.. لكننا معشر الجن لا نخرق القوانين!

تأففـت متـذمرا مـن كلامـه.. ثـم نهضـت عـن مكـاني وأنـا أضـع يدي على خاصرتيّ:

- ومـاذا سـنفعل الآن ونحـن لا نملـك طعامـا نقتـات عليـه ولا مـالا نشـتريه بـه؟!.. أنـت تعلـم جيـدا أن العـودة إلـى الـديار وتعـويضَ مـا فقـدناه قـد يكلفنـا ألفـي درهـمٍ علـى الأقل!..
- فلتهـاتف أمـك! ولتطلـب منهـا أن ترسـل لـك القليـل مـن المـال!.. هنـاك وكالـة لتحويـل الأمـوال فـي مركـز البلـدة المجاورة!
- أمــي؟!.. لا!.. لا لــن أفعــل!.. كمــا أن اليــوم جمعــة؛ مــا يعني أن الوكالة ستغلق أبوابها غدا وبعد غد!
- فلتطلـب منهـا مـا يضـمن لـك تـذكرة العـودة، وسـنتدبر تعويض صاحب الخيمة ولوازمها لاحقا!..

بـدا رأي العفريـت الصـغير صـائبا، وفـي غيـاب حـل بـديل قـررت العمـل بـه وأرسـلت لأمـي رسـالة نصـية.. غيـر أن حرقـة السـرقة كانـت أمَـرَّ فـي حلقـي مـن حرقـة الجـوع الـذي عـذب معـدتي طيلة الليلة التي أمضيتها مفترشا الأرض ملتحفا بالسماء..

فـي اليـوم التـالي أجبرنـي الجـوع علـى النـزول إلـى البلـدة بحثـا عـن طعـام، مثلمـا أجبرتنـي لافتـات منـع الصـيد مـن اصـطياد الأرانـب والحمـام.. فقطعـت أرجـاء البلـدة الصـغيرة طـولا وعرضـا دون أن يسـمح لـي كبريـائي باسـتجداء الأنـام، ولمـا وصـلت أمـام أبـواب الوكالـة المغلقـة، أنهكنـي الإعيـاء

وجلست تحت ظل شجرة وافرة الأغصان.. إلى أن ظهر سمعلوش مجددا وقال:

- عـزة نفسك هذه ستقتلك يوما ما!.. عجبا لك! تستحيي من إظهار ضررك!

رددت عليه بصوت متهدج النبرات:

- إنني لا أستحيي يا عديم النفع!.. إنني أترفَّع!

فارتفعت حواجبه مستغربا:

- عديم النفع؟!

وأكدت عليه التهمة قائلا:

- أجل يا سمعلوش!.. لو كنت نافعا لأحضرت لي ما أسُدُّ به رمقي!.. لا أعلم أي جني أنت؟!.. جني مزوَّر بالتأكيد!

فانفعل وقد احمرت خداه:

- لو كنت تأكل بقايا العظام لجلبتُ لك معي قليلا!.. من سوء حظك أنك لا تفعل!
- إذن فلتذهب إلى السوق ولتخطف لي شيئا من الموز والتفاح يا سمعلوش!
- لا أستطيع!.. إن السرقة فعل مشين!

أشحت بوجهي عن سمعلوش، واتكأت على الجذع منصتا لجعجعة أمعائي الفارغة.. ولما أغمضت عيني أملا في استجداء نوم ينسيني مرارة الإفلاس، نقر العفريت الصغير

علـى كتفـي وهـو يلفـت انتبـاهي إلـى متشـرد يرتـدي أسـمالا ممزقة ويجلس القرفصاء عند أبواب الوكالة:

- انظر إلى ذلك الشخص!

فنظـرت إلـى المتشـرد بعينـين ناعسـتين، واسـتطعت أن أميـز مُخـاط أنفـه الـذي يسـيل علـى شـواربه ولحيتـه الكثيفـة رغـم المسافة البعيدة.. وأردف سمعلوش ساخرا يضحك:

- هـذا الشـخص لـن يجـوع أبـدا؛ فهـو يلحـس مخاطـه بـين الفينة والأخرى!..

فنظـرت إلـى العفريـت وحدجتـه بنظـرة اشـمئزاز وقـد قزَّزنـي كلامه:

- تبا لك!.. لقد قطعت شهيتي للأكل!

فرد ضاحكا:

- فلتشـكرني إذن!.. لقـد قطعـت جوعـك الـذي أضـناك طيلة اليوم!

أجبته وقد انفلتت مني ابتسامة عناد واضحة:

- لا يـا عـديم النفـع! لـن أشـكرك!.. لقـد رأيتَنـي أجـوع لساعات طوال ولم تحضر لي شق تمرة!

فـي تلـك اللحظـة شـاءت الصـدف أن تمـرَّ عجـوز مـن أمـامي.. فتوقفَـتْ إثـر سـماعها لكلامـي.. ثـم عمـدت إلـى كـيس كانـت تحمله، وأخرجت منه موزتين.. ثم مدتهما لي قائلة:

- خذ!.. هذا لكيلا تقول أن الخير ذهب من الناس!

فانتفضت من مكاني قائما، وشرعت أشرح لها مبررا:

- أستغفر الله سيدتي!.. ما كنت أتحدث عنكِ!

فالتفتَتْ يمينا وشمالا.. ثم ضحِكَت باستغراب:

- ومن كنتَ تحدِّث إذن؟! إني لا أرى أحدا معك!

نظـرتُ إلـى سـمعلوش الـذي لا تسـتطيع العجـوز أن تـراه، ثـم أجبتها ضاحكا:

- لا تكثرتي سيدتي!.. فقط كنت أحدِّث نفسي..

فغمغمـتِ العجـوز قلـيلا ونظـرت إلـي بعطـف تجلـى فـي حدقاتها الرماديتين وقالت:

- هـذا يعنـي أنـك جـائع فعـلا! لا يُمكـن أن تكـذب علـى نفسك حين تحَدِّثها.. فلتأخذ الموزتين، وكفاك عنادا!

أخـذت مـا أعطتنيـه علـى مضـض، ثـم شـكرتها وجلسـت إلـى الشـجرة ألعـن اللصـوص، مراقبـا خطـوات العجـوز التـي تابعـت طريقهـا بخطـى بطيئـة.. إلـى أن تعمـد سـمعلوش وصـف المتشرد من جديد:

- انظـر إلـى صـديقنا الشـريد يزيـل جواربـه عـن قدميـه!.. إنـه يزيلهـا بـبطء حتـى تتسـنى لـك رؤيـة الخمـائر العفنـة وهـي تنسـلخ مـن سـاقيه! قبـل أن يلفحـك عبقهـا

الـذي يعيـد ذاكرتـك إلـى مزابـل التـاريخ!.. لطالمـا كانـت الرائحة مرتبطة بالذاكرة!.. أليس كذلك؟!

فرمقته بنظرة شزراء.. وقلت له متوعدا:

- إن تعمـدتَ اسـتفزازي مـرة أخـرى؛ فسأمسـحك مـن قائمة أصدقائي يا سمعلوش!..

لكـن سـمعلوش تظـاهر بالغبـاء، واسـتأنف الحـديث فـي ذات الموضوع:

- فلتنظـر إليـه.. إنـه بشـري مثلـك!.. لـمَ تتحاشـى النظـر إليـه؟! ولـمَ يتحاشـى المـارَّة النظـر إليـه؟! ألـيس إنسـانا يا قُساة القلوب؟!

فقمـت مـن مكـاني مبتعـدا عـن ضـجيج العفريـت، وعبـرت الشـارع باتجـاه الشـريد.. ثـم أعطيتـه المـوزتين دون أن أطـرِفَ إليـه وعـدت أدراجـي إلـى الخيمـة وقـد أنسـاني بُؤسـه جـوعي وإفلاسي..

فـي صـبيحة يـوم الإثنـين تلقيـت رسـالة نصـية مـن أمـي.. لقـد أرسـلت لـي مـا يفـوق كفـايتي مـن المـال، واستبشـرت بطعـام لذيـذ بعـد يـومين مـن الجـوع الشـديد، والأهـم مـن ذلـك دفء النقـود الـذي يعيـد إلـى البـال سـكينته ويُرجـع المـزاج إلـى سـجيته.. وحالمـا انطلقـت بصـحبة العفريـت الصـغير إلـى البلـدة لاستخراج النقود؛ ردد متلهفا:

- ستشـــتري لـــي جبنـــا ولحمـــا مقـــدّدا.. جبنـــا ولحمـــا مقدَّدا!..
- لا!
- أرجوك!
- لا!
- لمَ؟!
- تعْلَـــمُ جيِّـــدا لـــمَ!.. عـــدا عـــن ذلـــك، الجـــن لا يـــأكلون المُمَلَّحات؟!
- لكنني جني مأنوس! لقد تعودت على عاداتكم!
- قلت لا!
- أوووف.. يا لك من بغيض حقود قاس!

استمر سمعلوش في إلحاحه وتبرمه طوال الطريق.. قبل أن يتوقف فجأة حين لمحنا جمهورا من الناس والشرطة أمام أبواب الوكالة..

فاقتربنا من الجمع في فضول والتساؤلات تتقاطر على أذهاننا، وقصدت حارس الوكالة البنكية أملا في الحصول على تفسير لما يجري:

- ماذا وقع؟!

فنظر إلي بارتياب، وأجاب بجفوة:

- لا أدري!.. فلتبتعد من هنا!

استغربت معاملته لي وقصدت رجلا آخر يقف بين المتحلقين:

- ماذا حصل؟!

أجاب وهو لا يحرك بصره عن الوكالة:

- لقد تعرضَت الوكالة للسطو!..

فسألته بفضول أكبر:

- ومن فعل ذلك؟

حينها التفت إلي مجيبا:

- متشرد في الثلاثينات من العمر، أشعث، أغبر.. مخاطه لا يفارق منخريه، وإن فعل؛ فإنه يترك أثره على طول شاربيه!.. يتكئ على بويب عداد المياه، ويقضى اليوم بطوله مستجديا المارة.. وعندما يحل الليل؛ يلتحف بغطائه وينام، ليستيقظ في اليوم الموالي ويعيد نفس السيناريو.. اليومَ تغير السيناريو! اختفى المتشرد ، واختفت معه أموال الوكالة.. فتح الناس بويب العداد، فوجدوا بداخله فتحة إلى الوكالة!.. قام الرجل بعمليته والناس نيام، لقد خطط لكل شيء منذ البداية!..

سكتُّ وقد أُصبت بالذهول من كلامه، لاسيما وأن السارق كان أمام أنظاري قبل يوم فقط.. حتى أنني أعطيته

المـوزتين دون أن يسـاورني أدنـى شـك حـول شخصـه.. سـكتُّ لاعنا سوء حظي! ثم تابعت استفسار الرجل:

- ألم تكن الوكالة مزودة بكاميرات مراقبة؟

أجاب وعليه ابتسامة المخدوع:

- بلـى، لكـنهم لـم يحسـنوا تحديـد هويتـه، كـان ذا شـعر كثيـف، بشـارب يغطـي فمـه!.. وبلحيـة تخفـي نصـف وجهــه، عــدا عــن ذلــك لا أحــد يعلــم عــن هويتــه الحقيقية!..

غـادرت الحشـود خائبـا وسـلكت طريـق الجبـل وفـي كفـي خُفَّـا حنين.. ثم لحَق بي العفريت قائلا:

- لقـد اسـتطاع المتشـرد أن يخـدع الجميـع بمظهـره يـا صاح!..

فأجبته بالدرس الذي علمني إياه حال المتشرد:

- المظــاهر خداعــة! تســتطيع إثــارة الانتبــاه، وتســتطيع صرفه أيضا!..

بعـد مـرور أسـبوع مـن إغـلاق الوكالـة.. قـررت العـودة إلـى الـديار، ونزلـت إلـى الطريـق السـيار أمـلا فـي مصـادفة محسـنٍ يقلنـي إلـى مـدينتي التـي تبعـد بـألف كيلـومتر عـن مـأزقي.. أذكـر أننـي كنـت علـى وشـك العبـور، قبـل أن تتوقـف أمـامي دراجة نارية فارهة عليها شاب أنيق..

فنظر إلي الشاب باسما.. ثم قال:

- ألا تتذكرني؟!

حــدقت إليــه لهنيهــة، ولمــا تأكــدت أنــي لا أعرفــه؛ أجبتــه باستغراب نافيا:

- لا!..

ليجيب ضاحكا:

- أنـا المتشـرد.. أشـكرك علـى المـوزتين! وأعتـذر لـك عـن قـذارتي التـي أزكمـتْ أنفـك وأعمـت بصـرك!.. ثـم ألقـى برزمـة مـن المـال ومضـى فـي حـال سـبيله.. فيمـا ظللـت ساهما واجما بلا حراك!

صناعة السعادة!..

كما جرت العادة أيام الآحاد.. أخرج إلى الغابات الجبلية برفقة سمعلوش بحثا عن طرائد.. وكالمعتاد أيضا، نعود في آخر الليل إلى بيوتنا دون الحصول على طرائد!.. لهذا السبب طلبت من سمعلوش عصرَ الأحد المنصرم أن يتوقف عن التربص بالثعالب الكريهة، وأن نستغل ذلك الوقت في تجربة شيء جديد..

أذكر أنه فكر طويلا وهو يؤرجح جسمه الصغير على جذع شجرة الجوز.. قبل أن يتوقف عن التأرجح ويقفز مقبلا نحوي بصوته الرقيق وهو يقول:

- وجدتها يا رفيق! وجدتها!

توقفت عن التحديق إلى السحابة التي بدت كابتسامة عدو شامت، واستويت جالسا وكلي فضول:

- ماذا؟!.. ماذا وجدت يا عديم النفع؟!

فأجاب وقد وصلت حدود فمه إلى أذنيه فرحا بالفكرة التي خطرت عليه:

- سوف نسافر عبر الزمن!

حدجتــه بنظــرة اســتخفاف، وأعرضــت عــن فكرتــه وقــد عدت إلى الاستلقاء ومراقبة السحاب:

- لقـد سـبق وسـافرنا عبـر الـزمن يـا سـمعلوش!.. أم تـراك لم تدرك المغزى الذى أدركته خلال رحلتنا الأخيرة؟!
- أي مغزى؟!
- أنَّ اسـتعدادنا الفطـري والعقلـي لـن يتناسـب إلا مـع هـذا الــزمن الــذي خُلِقنــا لأجلــه.. فــالوعي الــذي اكتســبناه طيلـة حياتنـا هـذه سيكون محـدودا جـدا أمـام وعـي أي زمن مستقبلي نسافر إليه!..
- لا!.. لـم أقصـد السـفر إلـى المسـتقبل، بـل إلـى الماضـي!.. ســنقتني هواتــف نقالــة وســنبيعها لأســلافنا القــدماء، ســينبهرون بتقنيــة الاتصــال عــن بعــد! وسنصـير أغنيــاء بدون شك يا صديقي!

نظـرت إليــه مســتغربا غبــاءه!.. ثــم دمــرت حلمــه فــي أقــل من ثانيتين:

- ماذا عن شبكات التغطية؟!

فابتســم، وأخــذ يفــرك قفــاه مستشــعرا بلادتــه.. وأردفــت قائلا:

- حتــى وإن فرضــنا ســفرك إلــى الماضــي وإنشــاءك لنظــام اتصــالات متكامــل هنــاك.. ســيعدمونك بتهمــة الســحر والهرطقــة! ذلـك أنهـم لـم يعـاينوا مراحـل تطـور الهـاتف وأي تطـور مفـاجئ سـيكون شـعوذة فـي نظـرهم، أي أن

ما ستقدمه لهم سيكون آنئذ معرفة تفوق إدراكهم بأشواط!

همهم سمعلوش والحيرة تتملكه.. ولما هم بالعودة إلى جذع الشجرة، التفتَ ثم قال مترددا:

- ما رأيك.. أن أحَوِّلك إلى.. شيء ما.. شيء ممتع؟!..

ثم وضع يده الصغيرة على فمه مُتوقِّعا إجابتي المنتظرة.. قبل أن تُوافقَ توقعاته حين صرخت في وجهه:

- آخر مرة طلبتُ منك فيها تحويلي؛ حولتني إلى طبل!.. تبا لك!..
- أنت من طلب أن أحولك إلى شيء يصنع السعادة!.. أم تُراكَ نسيت؟
- طبلٌ يا سمعلوش؟! طبل؟! ألم تجد شيئا غيره؟! لقد انهالوا عليَّ بالضرب لأسبوع كامل! من عرس إلى عرس، ومن حفلة لأخرى!
- صحيح أنهم أشبعوك ضربا، لكنك أسعدتهم بالمقابل! وهذا أهم.. أليس هذا ما أردتَه؟!
- بلى يا سمعلوش!.. لكن!
- لكن ماذا؟!
- وددتُ لو أُسعدُ الناس دون ألم؟
- مستحيل!
- لِمَ يا سمعلوش؟!

- للسعادة ثمن!.. القلم لا يخط خطا جميلا، إلا بعد أن تبرِيَهُ المبراة، والحديد لا يصبح سيفا إلا بعد أن تصقله مطارق النار!..
- لو كان لذلك السيف المسكين لسان لطلب من الحداد أن يكف عن ضربه!..
- لو توقف الحداد عن ضربه لظل خرزة للأبد!.. لكي تكون ذا شأن عليك أن تصبر لمطارق الابتلاء يا صديقي!..

وبعد أن اكتنهتُ عمقَ حكمته.. توصلتُ إلى قناعة قائلا:

- اسمع يا صغيرَ العفاريت!.. ما عدتُ مهتما بإسعاد الآخرين، أريد إسعاد نفسي؛ إنها أولى بإحساني!.. أما الآخرون فسيتكفلون بأنفسهم!..

فشبك العفريت بين أصابعه وقد حدجني بنظرة متحاذقة:

- لقد أصبحتَ أنانيا يا رفيقي!..

ثم أجبته على الفور:

- إنني مأمور بالاعتناء بنفسي وسأُحاسبُ على إهمالها!.. فكيف تريد مني أن أسبب لها ألما وهي أولى بالاهتمام من غيرها!..

فارتفعت حواجب سمعلوش وقد وضع يديه على خديه من الذهول:

- يــااااه! لقــد صــرتَ براغماتيــا صِــرفًا!.. أيــن قــيمُ التضحية والإيثار؟!

أجبته ضاحكا:

- إن أغلـب الـذين يـدَّعونَ التضـحية بأنفسـهم فـي سـبيل الآخـرين هـم فـي الحقيقـة كـاذبون! فهـم يعلمـون جيـدا أنهــم ســينالون أجــرا أو تقــديرا بعــد ذلــك.. فكيــف تسميها تضحية إن كانوا ينالون عنها مقابلا؟!

أمسكَ العفريتُ عن العناد.. ثم قال:

- إلى ماذا تريد أن أحَوِّلك؟!

أجبته والابتسامة تزداد وضوحا على محياي:

- طـائرا!.. أريـد أن أطيـر فـي الهـواء.. أريـد اختبـار أجمـلِ إحسـاس فـي الكـون دون مشـقة أو ألـم!.. هـلاَّ حـولتني إلى طائر؟!

فــرك ســمعلوش ذقنــه مفكــرا يتمــتم.. ثــم أشــار بيــده إلــيَّ لأصـطدمَ علـى الفـور بـالأرض؛ وأكتشـفَ أننـي صـرتُ أقـرب إليهـا مـن ذي قبـلُ حـينَ بـدا العفريـت عملاقـا بجـانبي.. تأملتـه فـي دهشــة وخــوف.. ولمــا هممــت بحــكِّ ظهــري الــذي آلمنــي مــن الاصـطدام؛ اكتشــفت أننــي أملــك جناحــا لا يــدا!.. ربــاه لقــد أصـــبحتُ طـــائرا مخضـــب اللـــون بجنـــاحين مديـــدين.. ياللروعة!..

فأشـحت عـن سـمعلوش وابتسـامته المـاكرة، وانطلقـت عبـر الطريـق التـي تختـرق أغصـان الغابـة فرحـا أركـضُ، ثـم ضـربت بجنـاحيَّ منـدفعاً فـي الهـواء وتوازنـت بـذيلي مسـتعينا بتيـار الـريح.. ولمـا أوشـكت علـى السـقوط؛ ضـربت بجنـاحيَّ مجـددا واسـتقمت علـى انـدفاعي إلـى أن تمكنـت مـن التحليـق مخترقـا نسائم الهواء وتياراته نحو الفضاء اللامحدود..

كنـت أشـعر بالكمـال وأنـا أحـوم حـول ربـوع الغابـة.. وكـان شـعورا قمـةً فـي الروعـة حـال دون أن أصـدَّقَ أن الأمـر يحـدثُ فعـلا.. وفـي لحظـة مـن اللحظـات انغمسـت فـي المتعـة كليـا وتماديتُ مجتازا حدود الغابة إلى شواطئ الساحل..

كنـت منبهـرا بأشـعة الشـمس التـي تـنعكس علـى زرقـة البحـر وتتحـول مـع تلاطـم الأمـواج إلـى مـا يشـبه ملايـين الماسـات اللماعــة.. بــدا كــل شــيء صــغيرا ولطيفــا مــن الأعلــى، وكنــت أشــعر بــالقوة كلمــا ابتعــدت عــن الأرض وتقلَّصــت الأشــياء أمــامي.. تمنيــت لــو طــار الجميــع مثلــي ليختبــروا روعــة الإحســاس.. أن يبتعــدوا عــن ضــجيج اليابســة وضــيقها إلــى ســكون الســماء وشســاعتها.. أن ينــأواْ بأنفســهم عــن مشــاكل الأرض وأمراضــها، ويرتقــوا بــأرواحهم إلــى صــفاء الأعــالي وهدوئها..

شـعرت برغبـة كبيـرة بنقـل أحاسيسـي إلـى الآخـرين علـى الـرغم مـن قـراري الاقتصـار علـى إسـعاد ذاتـي؛ فاكتفيـت مـن

التحليـق فـوق الأمـواج وانعطفـت نحـو العمـران بحثـا عـن معـارفي.. كنـت علـى يقـين بـأنهم لـن يصـدقوا تجربتـي هـذه، لكننـي ارتأيـت أن أطيـر علـى مقربـة مـنهم وأخبـرهم بهـويتي كحجـة دامغـة لـن يسـتطيعوا تكـذيبها أبـدا.. فانطلقـت فـي تحكـمٍ تـام أختـرق السـحب وأنسـاب بـين الريـاح وأنـا ألتـف حـول نفسـي كطـائرة اسـتعراض نفاثـة.. ولمـا مـررت علـى سـطح أسـتاذتي التـي كانـت منشـغلة بنشـر غسـيلها صـرخت فـي وجهها مبتهجا:

- هل تعلمين من أنا؟! أنا تلميذكِ أحمد نجم الدين!

ثـم ابتعـدت عنهـا محلقـا والدهشـة تكـاد تقتلهـا.. وانـدفعت بكـل مـا فـي اسـتطاعاتي مـن سـرعة نحـو حارتنـا.. إلـى أن لمحـت جمعـا مـن طـلاب كليتـي عنـد أبـواب المسـجد، فصـرخت فـي وجوههم وأنا أخترق جمعهم مرددا:

- هـل تعلمـون مـن أنـا؟!.. أنـا زميلكم أحمـد نجـم الـدين!.. أحمد نجم الدين!.. تذكروني جيدا!..

ثم ابتعدت عنهم وفي نفسي فخر ما بعده فخر..

عـدت إلـى الغابـة، وأعـادني سـمعلوش إلـى طبيعتـي.. ثـم ودعتـه شـاكرا.. ولمـا أخـذت طريقـي إلـى البيـت رن هـاتفي.. أخرجتــه مــن جيبــي واكتشــفت أن المتصــل أحــد زملائــي.. فسـررت لـذلك كثيـرا! وقبِلـتُ مكالمتـه منتظـرا أن يخبرنـي عـن

شعوره ودهشته بعدما رآني على هيئة صقر جارح قوي!.. فقلت له بصوت ينفجر شموخا وفخرا:

- ألو!.. كيف حالك يا زميلي!

فأجاب بصوت تقطعه ضحكاته وضحكات أشخاص آخرين معه:

- ألو أحمد!.. إن هناك لقلاقا مجنونا يطوف في أرجاء المدينة منتحلا هويتك!.. إن السكان يظنون أنك استطعت أن تروضه على الكلام!.. ألك علاقة بالموضوع؟!..

أغلقت السماعة في وجهه والغضب يشتعل في دواخلي.. ثم رميت بالهاتف وقد انطلقت إلى سمعلوش مردِّدا:

- لقلاق يا سمعلوش؟!.. لقلاق! ..

التفاصيل الصغيرة

أذكـــر أننـــي كنـــت منشـــغلا بقلـــي البـــيض حـــين طـــرق سـمعلوش بـاب يومهـا.. كنـت مـا أزال وقتـذاك غاضـبا مـن تحويلـه إيـاي إلـى لقـلاق بـدلا مـن صـقر جـارح؛ لـذلك آثـرت الاسـتمرار فـي القلـي والانتشـاء برائحـة العجـة الممتزجـة بنسـمة البصـل والفلفـل علـى أن أفـتح لعفريـت جمعنـي علـى فضيحتين.. بيـد أنني تراجعـت عـن ذلـك لمـا سـمعت صـوتا إلـى جانب صوته..

لقـد كـان صـوت طفـلٍ مثلِـه، لكنـه بـدا مـن النبـرات أصـغر بسـنة أو سـنتين.. فوضـعت المقـلاة علـى المائـدة، واتجهـت إلـى الباب فيما كان سمعلوش يتوسل من وراءه:

- فلتفتح يا أحمد!.. أرجوك يا أحمد أرجوك!

ففتحـــت البـــاب؛ وتهللـــت أســـاريره.. قبـــل أن يُطِـــلَّ مـــن وراء ظهـره عفريـت أصـغرُ يشـبهه.. فابتسـمت لـه بانـدهاش مرغمـا، وتكلم سمعلوش معرِّفا:

- هذا أخي الأصغر ريراراي!

انفجرت ضاحكا.. فيما قدَّمني إلى أخيه وهو يمسح رأسه بعطف قائلا:

- وهذا صديقي الإنسي أحمد يا ريراراي!..

انفجرت ضاحكا من اسمه مرة أخرى، بينما اختبأ الصغير وراء أخيه وهو يتمسَّك به خائفا.. فنظر إلي سمعلوش نظرة عتاب.. وقال بصوت منخفض:

- إنك تخيفه يا أحمد! إنّه لم ير قط إنسيا قادرا على رؤية الجن والضحك في وجوههم!.. هلاّ كففت عن الضحك وتصرفت كما يتصرف الناس!

أجبته ساخرا من طلبه:

- أتريدني أن أهرع إلى الطاولة وأختبئ تحتها لكي يفرح ريراراي!.. يا لك من سخيف!
- لا!.. إنني أطلب منك ألا تبالغ في انفعالك أمامه، حتى أعود لأخذه!
- ولمَ تتركه برفقتي أصلا!.. خذه معك!

فارتسمَتْ على وجهه معالم التوسل من جديد:

- لا أستطيع إدخاله معي إلى قاعة الامتحانات!.. وأمي مريضة لا طاقة لها بمراقبته هذا اليوم، وأبي ملتزم بأعماله ولا وقت لديه!.. أرجوك!

أشفقت على حاله.. لكن، سرعان ما تذكرت فضيحة اللقلاق، وانفعلت صائحا في وجه العفريتين:

- ولمَ حولتني إلا لقلاق وجعلتني أضحوكة يتندّر بها من هبَّ ودبّ؟!

شرع ريراراي في البكاء فزعا.. وعبس سمعلوش رحمة بأخيه يهدئه ويقول لي:

- ألستَ من قال بأنك سَتُسعدُ نفسك أولا ولن تتكلف عناء إسعاد الآخرين؟!
- نعم!.. قلت ذلك.
- ألم تكن فرِحا سعيدا وأنت ترفرف بجناحيك؟!
- بلى!.. لقد استمتعت كثيرا!
- أخبرني إذا.. ما دمتَ سعيدا فلِمَ تهتم برأي الآخرين وانطباعاتهم حولك؟.. ما دمتَ تستمتع بالطيران فما الفرق بين كونِك لقلاقا أو صقرا وأنت تحقق المتعة نفسها؟!.. عدا عن ذلك لمْ تطلب مني تحويلك إلى صقرا!.. لقد طلبت أن تتحول إلى طائر دون أن تحدد لي نوعه.. لقد أفسدتَ متعتَك حين طلبتَ من الناس أن يُقَيِّموك!..

أمسـكت عـن الكـلام لمـا بـدا عـذره مقبـولا.. وحـين لاحـظ سكوتي تجـرأ علـى تـرك أخيـه دون مـوافقتي ونـزل الـدرج وهـو يقول:

- إن كنـت تسـتمتع بشـيء فـلا تطلـب رأي الآخـرين عنـه.. فالنصف منهم سيستمتعون كثيرا بإفسادِ متعتك!

لقـد كـان محقـا فـي كلامـه، لكننـي أدخلـتُ ريـراراي وأغلقـت البـاب قبـل أن يكمـل نصـائحه.. فـنحن البشـر نميـل لإسـداء النصـائح فـي كـل وقـت وحـين، لكننـا نكـره سـماعها فـي معظـم الأحيان..

جلـس ريـراراي إلـى المائـدة فـي صـمت وثبـات يخـالف طبيعـة الأطفـال.. ثـم جلسـت أمامـه أتأمـل تقـاطيع وجهـه وألوانـه الزاهيـة العجيبـة.. لقـد كـان وجهـا يختـزل الـدهاء والبـراءة والقـبح والجمـال كوجـه أخيـه، غيـر أن فـي لـون عيونـه الزرقـاء التـي تحـاكي زرقـة اللهـب وهجـا يحيـل إلـى الحكمـة والفتنـة معـا.. فسـبّحت الله علـى بـديع صـنعه، وتكلـم الصغير وهو يحملق إلي:

- لقد أراعك وجهي أليس كذلك؟!

فقهقهـت مسـتظرفا قولـه متعجبـا مـن نباهتـه.. وصـارحته قائلا:

- أجـل إننـي أجـد فيـه روعـة فريـدة لا أجـدها فـي بنـي جنسي يا ريراراي!

فأطرقـت رأسـي مـن طوفـان الضـحك الـذي اجتـاحني.. وسـألته بفضول:

- من سماك "ريراراي" يا ريراراي؟!

ابتسم خجلا وهو يميل برأسه إلى كتفه كقط مُدَلَّع:

- وما به اسمي؟!.. ألا يعجبك؟!
- إنني لا أقصد الإهانة!.. لكنه يشبه الزغردة!

فاندفع بوجهه قليلا وهو يستفسر:

- وما الزَّغرَدة؟

أجبته فورا:

- إنهـا اسـمك!.. اسـمك هـو الزغـردة، فقـط قـم بترديـده، وستعلم ما الزغردة..

فتحركت أذناه إشارة على الاستيعاب .. وقال ممسكا رأسه:

- آااه.. تقصـدُ ذلـك الصـوت الغبـي الـذي تصـدره النسـاء أثناء الأفراح والأعراس!

انفجـرت مـن الضـحك مجـددا.. ثـم أخـرجَ ريـراراي لعبـة مـن جيـوب سـاعدِه الأيمـن وقـد اسـتأنس بصـحبتي.. كانـت اللعبـة شـبيهة بمكعـب الروبيـك، بيْـد أنهـا كانـت أكبـر حجمـا وأكثـر أجـزاءً وأوفَـرَ ألوانـا، وعنـدما لاحظـتُ أن طريقـة لعبِـه تنحـو نحو العشوائية ويتعمد ألا يرتب الألوان؛ سألته مستغربا:

- لقـد كـان بإمكانـك أن تصُـفَّ المكعبـات الحمـراء مـع بعضها لكنك لم تفعل!.. لمَ بعثرتها؟!

فرمقني مبتسما.. واستمر في اللَّعبِ وهو يجيبني:

- إنهـا لا تُلعـبُ كمكعـبِ الروبيـك!.. فـي لعبـة الروبيـك عليـك أن توَحِّـد كـل وجـه تحـت لـون واحـد!.. أمـا هـذه اللعبـة التـي تحتـوي علـى سـتين لونـا ومئـات الأجـزاء فعكسُـها تمامـا؛ عليـك أن تحـرك أجزاءهـا مـرتين فـي كـل ثانيـة متجنبـا التناسـق قـدر الإمكـان.. وإنْ حـدثَ والتقـا جُـزآنِ مـن نفـس اللـون فـي صـف واحـد سـواء كـان طـولا أو عرضـا؛ فأنـت خاسـر.. وإن لـم تـتمكن مـن إتمام حركتين في الثانية؛ فأنت خاسر..

تضاعف استغرابي!.. ثم سألته:

- وما اسم اللعبة؟
- مكعب الفوضى..

سكتُّ وقد أثارت لعبته اهتمامي.. وسألته قائلا:

- وهـل تجـد متعـة فـي هـذه الفوضـى التـي تحـرص عليها؟!
- فابتسم مجددا.. وقال:
- أجـل!.. فاللعبـة التـي تسير علـى النظـام غالبـا مـا تكـون محـدودة بنهايـة تجعلهـا مملـة فـي آخـر المطـاف.. أمـا الفوضى فلا حدود لها ولا نهاية ولا ملل!..

اندهشت واجما من كلامه الذي يفوق سنه!.. لكنني تذكرت أن الجن أذكى بكثير من البشر، وأن امتلاك طفل منهم لهذا الكم من الاستيعاب يُعَدُّ أمرا طبيعيا في عالمهم.. ثم سألته:

- من علّمكَ هذا الكلام يا عفريت؟!

أجاب:

- أستاذ الروضة..
- وماذا تدرسون في الروضة؟!
- ندرس فنون الرياضيات، فنون الخيمياء، فنون الإغواء.. والكثير الكثير!..
- لماذا تسمونها فنونا ولا تسمونها علوما؟!
- ذلك لأن أساتذتنا يطورون المعارف باستمرار ويبدعون أشياء جديدة في مختلف الميادين، ويتنافسون في التفنن في عرض علومهم وإبداعاتهم.. لذلك يسَمَّون بالفنانين وتسمى موادهم فنونا، أما العلماء فدونهم مرتبة، وهم الذين يكتفون بحفظ القواعد والمراجع ولا يبدعون إلا نادرا..
- وماذا تدرسون في فنون الإغواء؟!
- نتعلم القواعد التي تجعل الأشياء جميلة جذابة، وهي نفسها القواعد التي تجعل الأشياء قبيحة منَفِّرة إن قمت بعكسها.. فالإغواء لا يتعلق فقط بإبراز محاسن الشيء الذي تريد أن تثير اهتمام

الآخـرين بـه، بـل يتعلـق أيضـا بكيفيـة إظهـار عيـوب الشيء الذي لا يخدم اهتمامُ الآخرين به مصالحك..

ازداد اهتمـامي بالموضـوع وازداد فضـولي أيضـا.. الشـيء الذي دفعني لسؤاله:

- ومـا الهـدف مـن دراسـتك لفنـون الإغـواء وأنـت جنـي مسلم؟!.. لطالما كان الإغواء حرفة الشيطان ونسله!

أجاب بعفوية بدت بجلاء من نبرات صوته الرقيق:

- يقـول أبـي أن السـبيل الوحيـد لمقاومـة الإغـواء، هـو العلـم بطـرق الإغـواء.. لـن تـتعلم أسـاليب الـدفاع مـا لـم تتعرف أساليب الهجوم!..
- هلا أعطيتني مثالا يا عفريت؟!

فتـرك اللعبـة مـن يـده.. وتجلـى الرضـا فـي قسـمات وجهـه فرحـا بما سيقدمه لي من معلومات وهو يقبل على الحديث قائلا:

- أحيانـا قـد تنجـذب لصـورة معينـة أو لصـوت معـين أو لقصـة معينـة؛ فتسـتأثر باهتمامـك وتسـحر كيانـك دون أن تعلـم أن السـبب الـذي يـدفعك إلـى الاهتمـام بهـا يكمـن فـي تَمـازُجِ ألـوان معينـة، وتناسـق أشـكال معينـة، واخـتلاط نبـرات معينـة، وتوظيـف معـانٍ محـددة.. وحالمـا تكتشـف ذلـك؛ يَبْطُـل عجبـك ولـن يعـود الشـيء الجـذاب جـذابا كمـا كـان.. فمعرفـة السـبب تبطـل العجب وتزيل الاهتمام!

اكتفيت من طرح الأسئلة حين أتخمتني معلوماته الدسمة.. وأضاف باسما:

- بإمكاني أن أريك بعضا مما يقوم به الشياطين من فنون الإغواء لكي تكونَ على علم بها وتحفظَ نفسك من الوقوع في فخها!

رمقته بنظرات ارتياب.. ووافقت على عرضه بدافع الفضول:

- سأكون ممتنا لك إن فعلتَ!

فارتفعت خداه بابتسامة عريضة كشفت عن نواجده.. وقال:

- حسنا سأريك غدا!..
- ولم لا تُريني الآن؟!
- هذا لأنني لا أتوفر على الوسائل التعليمية.. سيلزمني وقت لأحصلَ عليها!..

***

وفي صبيحة اليوم الموالي حضر ريراراي وطرق بابي في تمام الساعة الخامسة.. كنت ما أزال أفرك عيني من أثر النوم حين فتحت له وخاطبته بصوت متهدج النبرات:

- لقد أبكرت يا عفريت! إنها الخامسة فجرا!..

ثـم هممـت بـإغلاق البـاب فـي وجهـه، إلا أنـه اعتـرض بقدمـه الصغيرة مانعا إغلاق الباب.. وقال والجِدُّ يتضحُ في ملامحه وكلماته:

- وإن يكـن؟!.. قُـم بـاكرا تنـل حظـا وافـرا! لقـد أمّنـتُ مـا قـد يفيـدني فـي تعليمـكَ وأي دقيقـة تتأخرهـا؛ ستُفَوِّتُ عليكَ درس اليوم يا أحمد!

تعجبتُ من جِدِّه الذي يضاهي جِدَّ البالغين، وسألته:

- أي درس هذا الذي ستعلمني إياه في هذا الوقت؟!..

فجـذبني مـن يـدي إلـى أن اجتـزت مصـطبة البـاب، وأشـار إلـى بيت جاري إدريس وهو يقول:

- درسُنا اليوم هو جاركَ وزوجته..

حدجتـه بنظـرات اسـتغراب ولزمـتُ الصـمت منتظـرا أن يفسـر لي قصده.. إلى أن تابع قائلا:

- لقـد تقصـيتُ عـن جـارك وزوجتـه، وعلمـت أنهمـا أفضـل الأزواج وأكثرهمـا انسـجاما فـي هـذا الحـي!.. وعلمـت أيضـا أنهمـا مهندسـان منضـبطان يسَـيّران أمـور حياتهمـا وفـق نظـام محـدد، ممـا يجعلهمـا أنسـب وسـيلة تعليمية أمامنا..

تابعـت صـمتي حـين عجـزت عـن فهـم الفكـرة التـي يريـد إيصـالها، ولمـا فطـنَ لجهلـي؛ جـذبني خـارج المصـطبة، وأغلـق الباب في غفلة مني وقال:

- ألسـتَ تريـدُ حمايـةَ نفسِـكَ مـن مكائـدِ الشـياطين؟!.. فلترافقني إذن!

أخـذ الصـغير بيـدي إلـى أن وصـلنا إلـى بـاب الجـارَيْنِ، ثـم توقـف لهنيهة قائلا:

- سـأعيركَ مـن طـاقتي الأثيريـة لكـي تعكـسَ ذَرَّاتُـكَ مظهرَ ما يحيطُ بها فتصبحَ عديمة اللون..
- ولمَ تجعلني عديم اللون؟!
- لكي لا يتمكنوا من رؤيتك يا بليد!..

وقبـلَ أن يسـعني الاعتـراض علـى ذلـك، سـارع وأشـار بيـده إلـيّ.. ففقـدتُ مظهـري وأصـبحت جسـداً لا تدرِكـه الأبصـار؛ لأقفـز فـي مكـاني فزعـا عـاجزا عـن رؤيـة جسـدي وأطرافـي، ويلتصق بي العفريت ضاحكا يهدئ من روعي:

- لا تخـف!.. سـأُعيدكَ إلـى طبيعتـك فـور انتهائنـا مـن الدرس!..

انشـغلت بفزعـي وأنـا أتحسـس أطرافـي لأتأكـد مـن وجودهـا، بينمـا طـرقَ ريـراراي بـاب الجـارَينِ، وانتظـرَ إلـى أن فـتحَ إدريـسُ البـابَ.. فـدخل العفريـت وأدخلنـي معـه دون أن يشـعر الجار بنا.. فتعجبتُ من ذلكَ وتساءلت بصوت منخفض:

- كيف لم يستطع سماعنا؟!

أجابني الصغير وهو يدلف باتجاه البهو مفسِّرا:

- إن طاقتي الأثيرية التي تخفي مظهرك هي نفسها التي تُحَوِّل صوتك إلى موجات لا تلتقطها آذان البشر.. بإمكانك أن تصرخ كما تشاء دون أن يسمعوك!

شعرت بضيق في صدري مما نفعله؛ وأمسكت العفريت من قفاه وأنا أقوده نحو الباب الذي ما يزال إدريس يقف عنده باحثا عن الطارق:

- فلنخرج حالا.. إننا ننتهك حرمة الجيران!

في تلك اللحظة، أغلق إدريس الباب وهو يتمتم مستغربا أمر الطَّرَقات ثم اتجه نحو المطبخ ليكلِّم زوجته التي كانت تسأله عن هوية الطارق:

- من الطارق؟!

أجابها وهو يسكب لنفسه كوبا من القهوة:

- لا أدري!..

بدأت في الضغط على قفا ريراراي وأنا أعاتبه:

- لقد أغلق الجار الباب!.. ولا يمكنني فتحه مادام على مقربة منا!.. أي ورطة هذه!

رد ريراراي ضاحكا:

- لا تخف!.. ولا تستحيي!.. أنت الآن في مجلس علم، ولا حياء في العلم..

ثم ابتعد عني وجلس على طاولة قبالتي ممهدا لدرسه:

- هـذان الزوجـان يعيشـان حيـاة سـعيدة!.. ولكـن، هـل تعلم لماذا؟!

أجبته وقد نال مني التوتر:

- لا!.. لماذا؟!

أجاب وهو ينظر إليهما:

- لأنهمـا علـى توافـق.. والتوافـق نشـأ مـن عـدة قواسـم تجمعهمـا، فهمـا علـى نفـس القـدر مـن التعلـيم؛ فـلا أحـد منهـا يشـعر بتخلفـه أو تفوقـه علـى الثـاني.. وهمـا علـى نفـس القـدر مـن المـال؛ فـلا أحـد منهمـا سيشـعر بـنقص عـن الآخـر، أضـف إلـى ذلـك أنهمـا علـى نفـس القـدر مـن الصـحة والجمـال؛ فـلا أحـد منهمـا سـيبالغ فـي الحـرص علـى الثـاني.. ممـا يجعـل الغيـرة المرَضِـيَّة بينهمـا منعدمـة، ويُوَلِّـد بينهمـا ثقـة ورابطـا قويـا.. لكـن أهـم مـا يحفـظ متانـة هـذه العلاقـة هـي مجموعـة مـن التفاصـيل الصـغيرة التـي يقـوم بهـا كـل طـرف منهمـا تجـاه الآخر..إنهـا لا تبـدو مهمـة فـي نظـر الطـرف الـذي يقـوم بهـا، فـي الوقـت الـذي يفـرح بهـا الطـرف الثـاني ويرى فيها دليلا على اهتمام الآخر به..

ففهمت مقصده.. وقاطعته محذِّرا:

- إيــاك أن تفكــر فــي تخريــب علاقتهمــا فــي ســبيل تجاربــك العلميــة هــذه!.. قــد أحرقُــك إن تجــرأْتَ وفعلتَ!

فابتسم بخبث ومكر.. ورَدَّ:

- لا!.. لـن أخـرِّب شـيئا؛ فقـط سـأجعلهما تحـت الضـغط، وهمـا مـن سـيقرر تصـعيد الأمـور أو العكـس!.. فلتراقـب في صمت!.. سأتحمل كامل المسؤولية!

طفقــتُ أحــدق إليــه بنظــرات لا تخلــو مــن الشــك والحيــرة، واسترسل كلامه:

- ولأن التفاصـيل الصـغيرة التــي لا نبــالي بهــا هــي مــا يُظهِـر للآخـرين مقـدار حبنـا واهتمامنـا بهـم قـررت أن أركــز عليهــا وأن ألهــيَ الــزوجين قــدر الإمكــان حتــى أمنعهما من القيامِ بها!

ازدادت حدة نظراتي للعفريت.. وهممت بخنقه:

- ماذا فعلت يا هذا؟!

فأجاب وهو يقفز هاربا إلى الطاولة:

- فــي الواقــع.. لقــد جئــت إلــى هنــا قبــل العاشــرة لــيلا، واشـتغلت بكـل طـاقتي كـي أؤخـر الـزوجين عـن موعـد نومهمـا.. ألهيـت إدريـس بقـراءة كتـاب، وألهيـت زوجتـه بالدردشـة مـع صـديقتها حـول قَصَّـة شـعرِها.. المسـكينة

كلمــا حاولــت إغــلاق النِّــت والخلــود للنــوم ذكرتهــا بفضــاعة تســريحتها الجديــدة؛ لتبــدأ فــي الحــديث مــع صــديقتها مجــددا وســؤالها عــن إمكانيــة القيــام بقصــةً أخرى..

- وما الداعي إلى دفعهِما إلى السهر؟!

فتبسم العفريت وأجاب:

- عليــك أن تعلــم أولا أنهمــا متعــودان علــى الاســتيقاظ مــع تمــام الرابعــة صــباحا.. يحيــي الــزوج زوجتــه بقبلــة، ثــم تعــد لــه كوبــا مــن القهــوة، لينشــغلا بعــد ذلــك بابتكــار تصــاميم معماريـــة جديـــدة إلـــى أن يصـــل موعـــد الإفطــار.. لكــن ســهرهما بــالأمس أخــر اســتيقاظهما إلــى الخامســة، فاســتيقظ الــزوج علــى عجــل؛ ونســي تقبيــل زوجته، وأهملت الزوجة إعداد القهوة..

فضحكت من ذكائه المزعوم.. وقلت له مستهزئا:

- لقــد أضــعت وقتــك بــلا فائــدة!.. هــل تظــن أن إهمــال حركتين بسيطتين سيحدثُ فارقا؟!

ليرُدَّ بصوت تملؤُه الثقة:

- انتظر وسترى بأم عينيك!

دخــل الزوجــان إلــى مشــغلهما دون أن يحــدِّث أحــدهما الآخــر.. انهمــك كــل منهمــا فــي عملــه، وبــدت الأمــور علــى مــا يــرام.. إلــى أن اقترب العفريت من الزوجة ووسوس لها:

- غريب أمر زوجك اليوم؟!.. لم يحييكِ تحيةَ الصباح، أيعقَلُ أن يكون ذلك بسبب بشاعة قَصَّة شعركِ الجديدة؟!.. ما عدتي جميلة في نظره! ليتكِ لم تقصي شعركِ؟!

ثم ابتعد ريراراي إلى الطاولة ضاحكا، فيما شاهدتُ الزوجةَ تُقَلِّبُ شعرها وقد تسلل الشك إليها بفعل الوسوسة.. قبل أن تنهض من مكانها وتدخل الحمام..

قفز ريراراي إلى الطاولة من جديد يقول:

- والآن ستُمضي الزوجة وقتا طويلا وهي تبعثر شعرها وتصففه أمام المرآة!.. إنه الوقت المناسب لإيقاظ ابنهما الرضيع!

فهرعَ إلى غرفة نومهما وكلُّهُ حماس، واحتاج إلى أقل من دقيقة لكي يتسبب في إيقاظ الطفل باكيا بأعلى صوته.. ثم ركض العفريت مرة أخرى متجها نحو الحمام..

توقف الزوج عن الرسم وهو يمسك مزواته الكبيرة منتظرا أن تتفقد الزوجة ابنها.. لكنها لم تخرج، فاربد وجهه وهو يطيلُ انتظاره، وخرج ريراراي من الحمام بسرعة.. ثم اقترب من الزوج ووسوس له:

- لقد أصبحت زوجتك مهملة!.. في بادئ الأمر أهملت قهوتك، والآن تُهمل إبنك!..

فرمى الزوج بقلمه ومزواته، واتجه إلى غرفة النوم!..

في تلك اللحظة خرجت الزوجة من الحمام وقد ربطت شعرها إلى الخلف، ولحقت بزوجها.. ثم أمسكتُ العفريتَ من أذنه أجرُّه إلي وأقول:

- ستفسدُ على الناس حياتهم يا شيطان!.. بماذا وسوست للزوجة في الحمام؟!

أجاب بنبرة يعلوها أنين الألم وهو يحاول إبعاد يدي:

- قلت لها.. أي حبٍّ هذا الذي يكِنُّه لكِ زوجكِ؟!.. ينقصُ بنقصانِ شعرِكِ ويزيدُ بطولِهِ.. هيهيهيهي. !

فركلتُ العفريتَ وقد أضحكني قوله:

- يا لكَ من شيطان!

ليردَّ وهوَ يحكُّ مؤخرته:

- لست شيطانا!.. لكنَّ البشر تافهون!.. إنهم كبنيان يفتقر للأساس العميق الذي يحميه من الزلازل والعواصف!

خرج الزوجان من الغرفة والطفلُ في حضن أمه قد أمسكَ عن البكاءِ.. فقالت الزوجة لزوجها:

- لقد أيقظهُ الجوع!.. يلزمه حليب!

ثم وضعت كفها على رأسها وقد تذكرَّت أمرا:

- أووه.. نسيتُ إخبارك!.. نفد الحليب!

فاربد وجه الزوج مجددا وقال بلهجة تميل إلى الشدة:

- ولمَ لم تخبريني ليلة البارحة؟!.. من أين لنا بحليب الساعةَ وجل الصيدليات مغلقة؟!

أجابت وهي تنظر إليه باستغراب:

- لقد نسيت!.. سبق وقلتُ لكَ أنني نسيت!

ثم ابتعدت إلى المطبخ، وخرج الزوج من البيت غاضبا يغمغم:

- تنسينَ حليب الطفل؟! ثم تنسينَ قهوتي!..

بعد أن نجح العفريت في خلق توتر عكَّر أجواء البيت.. لحق بالزوجةِ مرة أخرى، وجلس على منضدة المطبخ وهو يوسوس لها مستثمرا ما سبق:

- ألم أقل لكِ أنه ما عاد شغوفا بكِ كما كان؟!.. أرأيتِ كيف صرخ في وجهكِ؟!.. لقد كاد أن يصفعكَ!.. نعم!.. لقد أوشكَ أن يصفعكِ بالتأكيد!..

حينها اتجهت الزوجة إلى البهو، واتصلت بصديقتها، ثم شرعت في إخبارها بما حدث وكيف انعكست تسريحتها الجديدة على علاقتها الزوجية..

أمـا العفريـت فقـد وجَّـه جُهـدَه إلـى الطفـل هـذه المـرة.. وشـرع يوسـوس لـه بالابتعـاد عـن أمـه والتقـاط كـرة حمـراء كانـت علـى طـرف الكنبـة.. فاسـتجاب لـه الطفـل؛ وأخـذ يحـاول الوصـول إلـى الكـرة حبـوا.. لكـن أمـه كانـت تمنعـه فـي كـل مـرة.. علـى الـرغم مـن ذلـك، اسـتمر العفريـت فـي الوسوسـة إلـى أن غفلـت الزوجـة عـن ابنهـا، ونجـح هـذا الأخيـر فـي الوصـول إلـى الكـرة، ثـم مـدَّ يـده نحوهـا.. غيـر أنـه لـم يـتمكن مـن لمسـها؛ مـا دفعـه إلـى محاولـة القيـام الـذي نـتج عنهـا الانـزلاق!.. والسـقوط على أرضية البهو..

قمـت عـن مقعـدي وقـد هـالني منظـر الـدماء التـي انسـابت مـن جبهـة الفتـى، وتبعـت ريـراراي ركضـا وهـو يهـرب منـي مـن غرفـة إلـى أخـرى.. ثـم رمـت الأمَّ بالهـاتف وقـد مـلأ صـراخ طفـل العمـارة كلهـا.. قبـل أن يـدخل الـزوج، وأتوقـف عـن الـركض، ويتعلق العفريت بالستائر..

عندئـذ هـرع الأب إلـى إبنـه فـي غضـب وهـو يصـارح زوجتـه بشعوره:

- مهملة أنتِ! مهملة!.. ماذا حصل لك؟!

لتنفجر الزوجة في وجهه بدورها:

- بـل مـا الـذي حصـل معـك أنـت؟! تسـيء معـاملتي مـن أجل شَعري!.. يا لك من سطحي!.

رد الرجل وقد ازداد غضبا:

- شـعركِ!.. الـدماء تسـيل مـن ابنـك وأن تتحـدثين عـن شعرك؟!.. وا عجبا لنساء اليوم!..

استمر الشـجار لسـاعة، ثـم انعـزل كـل منهمـا فـي غرفـة.. الأم تضـمد جـرح ابنهـا، والـزوج يلعـن زمانـه فـي مشـغله.. إلـى أن ساد الصمت وفقد البيت دفئه وسط الجو المشحون!..

كـان ريـراراي مـا يـزال معلَّقـا بالسـتائر خوفـا منـي، وكنـتُ فـي حيـرة مـن أمـري، سـيما وأنـي سـاهمت بشـكل أو بـآخر فـي تفـاقم الأوضـاع.. قبـل أن ينـزل ريـراراي ويخطـو نحـوي مستعطفا:

- أرجوك أمهلني لحظة لكي أصلِحَ الأوضاع!

أومـأت لـه برأسـي موافقـا.. فـدخل إلـى حيـث تجلـس الزوجـة، ومكـث هنـاك لبضـع لحظـات.. قبـل أن تخـرجَ متجهـة إلى زوجها الذي كان يخُطُّ بعصبيةٍ على ورقه..

اقتربَـت الزوجـة مـن الـزوج بحنـان وهـي تمسـحُ كتِفـه.. ثـم طوقـت عنقـه وهمسـت لـه بكـلام لـم أسـتطع سـماعه.. فاسـتقام حاجبـاه المقطبـان وكشـف عـن ابتسـامة، ثـم قـام وعـانق زوجتـه وكأن شيئا لم يحدث..

عندئـذ عجـزت عـن الكـلام مبتسـما، وابتعـدت نحـو البـاب رغبة في الخروج، ولحق بي ريراراي مزهوا بصنيعه يقول:

- أفهمتَ درس اليوم؟!

فالتفتُّ إليه:

- نعم!.. لقد فهِمتُ أنك شيطان كبيرٌ خبير!

ثم عمد إلى الباب وفتحه بلطف وهو يقول:

- إن الإغــواء ســلاح ذو حــدين، ومهمــا كانــت حــدة المشــاكل بـين الأزواج، فـإن تنــازل المــرأة عــن عنادهــا، وتخلــي الرجــل عــن كبريـــاءه كفيـــل بـــأن يصـــلح الأوضاع..

فضحِكتُ من قوله قائلا:

- صــراحة لســتُ مهتمــا بمناوشــات الأزواج .. أريــد منــكَ قاعدةً أحمي بها نفسي من كيدِ الشياطين!

فسكتَ العفريت قليلا.. ثم قال:

- اسـمع.. وأنــتَ تعـيشُ حياتــكَ وفــقَ مبادئــكَ الكبيــرة لا تــنسَ التفاصـيل الصـغيرة.. إن إهمالهــا هــو الــذي يســبب الآلام الكبيرة..

تعارض..

كان يجلس في غرفته مكبل اليدين حزينا.. لم يكن أسيرا ولا سجينا.. بل كان يعانى من مرض غريب.. مرض يدفع الآخرين إلى اتهامه بالجنون وما هو بمجنون.. كل ما في الأمر، أن يديه تتمردان عليه.. كلما همت يده اليمنى بفعل شيء؛ فعلت اليسرى نقيضه.. كلما حاولت يمناه الإمساك بملعقة؛ قامت يسراه بدفع الملعقة وإبعادها.. كلما أضاء المصباح بيسراه؛ ثارت وأطفأته يمناه..

وإن شرع في ارتداء ملابسه، أقامت يداه حربا طاحنة فيما بينها، هذه تلبس والثانية تنزع، هذه تفتح والثانية تُزَرِّرُ وتغلق.. أحيانا تقوم يده اليسرى ليلا بخنق رقبته فيما يحاول المسكين جاهدا بيده اليمنى أن يحرر نفسه من قبضتها..

سئم حياته.. وقرر ذات يوم أن ينهض عن سريره، وينطح الجدار المقابل له كما تفعل الخرفان، لعله يستريح من اضطرابه.. فاستجمع شجاعته وتراجع إلى الوراء بخطوات محسوبة.. ثم انطلق بكل ما لديه من سرعة نحو الجدار..

عندما استعاد وعيه كان بالمستشفى، وكانت حوله عائلته وجيرانه.. كانوا ينظرون إليه بحزن وأسف، مشفقين عليه من محاولة انتحاره الفاشلة.. فوضع يده على وجهه من شدة شعوره بالإحراج.. ثم أبعدها عن وجهه لما أدرك أن إخفاءه لن يخفي الحقيقة المرّة.. لكنه سرعان ما أعادها مرة أخرى ومعالم الذهول قد انطبعت عليه!.. لقد اكتشف أن يده اليسرى ما عادت تعاكسه.. تهلل وجهه واستبشر رغم الألم ثم صاح بصوت ملأ المستشفى: " لقد شفيييييت!!!"..

نهض من مكانه وقد سُرَّ من حوله لسروره. ثم شرع يحرك يديه كما يشاء دون عائق أو مُعيق.. فدخل في نوبة من الضحك المجنون، وتعالت الزغاريد فرحا بشفاء العليل..

لكن.. ولما أراد أن يعانق أحبابه؛ خطا برجله اليمنى إلى الأمام، فعاكسته رجله اليسرى؛ وسقط في مكانه..

حماري الحمار

وأنا أتصرف في إحدى ذواتي، نأيت بحماري المنغولي إلى أكمة تشرف على واد فسيح.. كنت راغبا في التأمل؛ علني آتي قومي بما يبهرهم من حكم وأمثال.. لكن حماري رفع أذنيه عن صدغيه لأول مرة في حياته، ثم التفت إلي ناطقا بصوت أقرب ما يكون إلى الأنين:

- كفاك؟!

انتفضت عن ظهره مرعوبا ، وسكتُّ للحظات.. ثم تشجعت قائلا:

- إنك تتكلم يا حمار!

فطرف إلي بعينيه المنكسرتين وقال:

- لقد حان أوان حل مشكلتي!

ترققت لحاله وقد انسلخت من خوفي:

- ما الأمر؟!.. أطلعني على مشكلتك، ربما ساعدتك!

دارت عيناه في محجريها، وقال بعد تفكير قصير:

- أنت مشكلتي!.. إنك تركبني باستمرار!.. لقد ضقت درعا بذلك، وما عدت أتحمل!

وجمـت لهنيهـة.. ثـم فكـرت بتـأن ورويـة.. لأجيبـه وقـد أخذت قرارا لارجعة فيه:

- فلتذهب إذن!.. إنك طليق يا حمار!

أمضـى الحمـار أسـبوعا يرعـى وسـط المـروج الخضـراء.. تـارة ينعـزل بنفسـه عـن الخليقـة، وتـارة أخـرى يتطفـل علـى قطعـان البقـر والأغنـام.. وفـي بعـض الأحيـان تغلِـبُ عليـه شـقوته، ويتحـدى حصـانا عجـوزا أعرجـا فـي سـباقات دائمـا مـا تنتهـي بخسـارته المريـرة؛ قبـل أن يعـود إلـى عزلتـه حزينـا مدَمَّرا..

لكـن حـدث أن اسـتيقظت فـي اليـوم التاسـع وهـو ينهـق عنـد بـاب بيتـي.. فخرجـت إليـه، وحـدقت إليـه مطـولا وهـو يحـاول أن يسـحرني بابتسـامة مزيفـة تبـدي عيـوب أسـنانه المفلطحة.. ثم سألته:

- مـا الـذي أعـادك وقـد أعطيتـك حريتـك يـا طويـل الأذنين؟!

أجاب وقد أطرق رأسه:

- لقـد أمضـيت أسـبوعا ممـلا!.. وأدركـت أننـي لا أسـعد إلا وأنـا مركـوب مضـروب!.. فلتركبنـي مجـددا؛ إن ذاتي لا تتحقق إلا بحماريتي!..

أنا والشيطان..

بعد جهد جهيد، وبفضل أحد العفاريت النافذين في عالم الجن، تمكنت أخيرا من تأمين لقاء مع إبليس اللعين، سلطان الغواية وإمامها الأكبر.. لقد كان لزاما علي - إن أردت الحصول على اتصال مباشر - أن أدخل مرحلة ما بين النوم واليقظة؛ حيث أن إبليس اللعين - وعلى النقيض من بقية الجن- يأنف من التجسد والظهور لأي كان في عالمنا المحسوس..

أذكر أنني كنت على مدخل بوابة حجرية حين انفصل عني وعيي، وفورما انقشعت سحب الضباب التي كانت تشوش على رؤيتي؛ اتضح أن البوابة وردية منقوشة بكتابات سومرية وبرسوم لرجال طوال مجنحين..

انشغلت لبرهة بمشاهدة النقوش.. قبل أن يجذبني العفريت من كتفي وهو يشير إلى جمهرة من العفاريت:

- عبـدالله.. أرأيـت تلـك الحلقـة؟!.. إنهـم يتحلقـون حـول إبلـــيس وينهلـــون ممـــا يغـــدق بـــه مـــن علـــوم، إنهـــا فرصتك لمقابلته..

أومـأت برأسـي، وقصـدت الحلقـة بخطـوات موزونـة أبعـد مـــا تكـــون عـــن الخـــوف.. وبمجـــرد أن وصـــلت إلـــى حيـــث يجتمعـــون؛ انفـــض الجمـــع وغـــادر العفاريـــت فـــي شـــتى الاتجاهـات وأجسـامهم تتلاشـى كالـدخان.. بيـد أن إبلـيس ظـل في مكانه وحدجني بنظرة تتقد دهاء ومكرا:

- مالذي جاء بك أيها الإنسي؟!..

فـي البدايـة لـم أصـدق أن يكـون الشـيطان شـبيها لجـوني ديـــب؛ فكـــان مـــن الطبيعـــي أن أشـــيح عنـــه وألتفـــت تجـــاه العفريت وأنا أسأله مشككا:

- هل أنت متأكد من كونه إبليس؟!!!

هـز العفريـت رأسـه مؤكـدا وي يـده فنجـان مـا زلـت لا أدري من أين حصل عليه.. ثم التفتُّ إلى إبليس قائلا:

- يقولـون أنـك خـارق الـذكاء، لكننـي لا أظـن ذلـك.. فلـو سجدت لجدي آدم لما صرت لعينا الآن يا شيطون!..

فارتسمت على شفاهه ابتسامة استهزاء، ورد على الفور:

- لو سجدت لآدم لما وُلدتَ أنت!..
- وما علاقة سجودك بميلادي يا مغفل؟!

- لا حمل ولا إنجاب في الجنة يا بليد!..

فركت قفاي محرجا.. واسترسل اللعين كلامه:

- لكـي يتناسـل البشـر وتسـتمر الحيـاة, علـى شـخص مـا أن يغـــوي آدم ويخرجـــه مـــن الجنـــة ليســـكن الأرض ويعمرهـا.. شـخص داهيـة خبيـر بسـبل الهدايـة ليمنـع البشـر منهـا، خبيـر بسـبل الغوايـة ليـوقعهم فيهـا.. وبمـا أننـي كنـت أكثـر المكلفـين علمـا وعبـادة؛ كنـت المرشـح لذلك المنصب..

قهقهت ضاحكا، وقلت له:

- مسـتحيل يـا لعـين، إنـك خسـيس يحـاول تبريـر فعلتـه النكـراء!.. وان افترضـنا صـحة قولـك، لـمَ فرطـت فـي الجنـان واختـرت اللعنـة والجحـيم الابـدي مصـيرا لـك في مقابل غواية لا طائل لك منها؟!..

أجاب وهو يقوم من مكانه:

- لقــد كنــت أكبــر العابــدين حينهــا، والعبــد الحقيقــي لا يلتفـت إلـى جنـة ولا إلـى نـار، يعبـد مـن أجـل العبـادة، ويقوم بما كُلِّف به!..

ثم ابتعد عني وهو يقول:

- عـن إذنـك عبـد الله، لقـد كلفنـي ربـي بالغوايـة ولا وقـت لدي لنقاش تافه مثلك..

فتلاشى عبر الظلمات.. وأقبل علي العفريت مربتا على كتفي ينصحني:

- إياك أن تصدق ما قاله ولو تسلل إليك سحر منطقه!.. لا تنس أنه إبليس الخبير بالتدليس!..

العين بالعين..

في حديقة منزلي الخلفية، نبتت لقالق جديدة.. تعهدتها بالعطف والري حتى طالت أعناقها وتفتقت أجنحتها المخضبة..

ولما ظننت أنها ستستمر في إسعادي بأصواتها المزعجة، طارت إلى السماء راحلة وقد تركت في حديقتي حفرا غائرة..

فوجئتُ عندما اكتشفت أنها تركت بها بيضها!.. كانت تظن أنني سأتكفل برعاية فراخها كما فعلت معها.. إلا أنني أخذت البيض هذه المرة وصنعت منه عجة لذيذة.. ذلك أن العين بالعين، والجروح قصاص!

نوكيا 1100

غالبا ما يرتبط مصطلح الرعب بالأشباح والأرواح، أو الجان والغيلان.. والسبب في ذلك، أن الكبار الذين ترعرعنا على أياديهم، يتعمدون إخافتنا بهاته النماذج الغامضة التي كانت - بلا ريب - وسيلة لإرعابهم وترهيبهم وهم أطفال..

وإذا ما ألقينا بنظرة على الموروث الشعبي للعالم أجمع؛ فسنجد أن الشخصيات المرعبة في جميع الحكايات، إحدى ثلاث.. وهي: المسخ؛ الغول؛ الجن أو ما يسمى بالأشباح و الأطياف في ثقافات أخرى..

لكن المدهش في الأمر والمضحك في الآن ذاته، أن البشرية وبالرغم من التقدم الذي عرفته في جميع المجالات ما تزال عاجزة عن إيجاد وسائل رعب جديدة.. إذ أن خيال كُتَّاب قصص الرُّعب وأفلامه لم تعثر بعد على بديل مرعب للنماذج التي ذكرتُها آنفا.. اللهم إلا بعضَ من سولتْ لهم أنفسهم اعتبارَ بهلوان مجنون أو قاتل متسلسل ضربا من ضروب الرعب، وتلك سقطة شنيعة وفشل ذريع.. فالرعب

الحقيقـي لا يجـب أن يـرتبط بفكـرة المـوت، ذلـك أن المـوت يجَـرِّدُ الرعـب مـن غموضـه ويجعلـه وسـيلة لـه لا غايـة فـي حـد ذاته..

وإذا دققنـــا النظـــر؛ فســـنلاحظ أن تمـــازج الغمـــوض واللامـألوف هـو مـا يخلـق الرعـب فـي نفوسـنا.. فلـو كنـتَ مسـتلقيا فـي غرفتـكَ مسـتعدا لنـوم هنـيء ثـم انبثـق مـن السـقف رأس بـلا ملامـح؛ لقُمـتَ مـن مكانـك فزِعـا هاربـا إلـى مـا لا يعلمـه إلا الله.. دون أن تـدرك أن مـا هربـتَ منـه مجـرد رأس بلا ملامح لا يشكل تهديدا لحياتك!..

لكـن مـاذا لـو أرعبـك شـيء مـألوف أبعـد مـا يكـون عـن الغموض؟!

ماذا لو أرعبك أكثر شيء يلازمك؟!

ماذا لو أرعبك أكثر شيء يؤنسك؟!

مـاذا لـو أرعبـك هاتفـك؟!.. نعـم هاتفـك النقـال!.. ذلـك اللعـين الـذي تعكـف عليـه أكثـر ممـا تعكـف علـى أمـك وأبيـك وفصيلتك التي تؤويك!..

صـراحة.. لقـد كنـت مـدمنا علـى هـاتفي كأغلـب أهـل هـذا الزمـان!.. كنـت أحـب هـاتفي ولا أصـبر علـى فراقـه.. أذكـر أن اسـمه كـان "نوكيـا 1100" لكنـه كـان معروفـا بالنوكيـا "مصـباح".. لطالمـا استضـأت بمصـباحه ذاك فـي ظلمـة الليـالي

الحالكة دون أن أعلم أنه سيسبب لي أحلكَ ظلمة في حياتي كلها.. فذات ليلة، وعندما كنت منشغلا بتنويم نفسي طلبا للنوم، رن الهاتف مهتزا وقد انبعث من شاشته نوره الأصفر الذي يومض على إيقاع الرنين..

استويت في فراشي وأنا أنظر إليه مستغربا استقبالي لمكالمة في جوف الليل، لا سيما وأن رقمي حديث لا علم لأحد به غيري.. ونهضتُ إلى الطاولة حيث وضعته متسائلا عن هوية هذا المتصل الذي قطع عني خلوتي وحرمني من اصطياد غفوتي!. ولمَّا حملت الهاتف لأتبيَّنَ رقمه؛ تسمرت في مكاني عاجزا عن الاستيعاب والتحليل!..

لقد كان الرقم المتصل رقمي!.. كيف يعقل أن أتصل بنفسي؟!.. أي خلل معلوماتي هذا الذي سمح للهاتف بإجراء اتصال ذاتي؟!.. لا أذكر أني زودت هاتفي بهذا النمط من الخيارات؟! فرفضت المكالمة متعجبا ضاحكا، ثم استلقيت على سريري وقد أغمضت عينيَّ من جديد!.. لكن سرعان ما شرع الهاتف في الرنين مرة أخرى، وانتفضت في مكاني وقد تسمرت أنظاري على هذه الآلة المجنونة!..

التقطُّهُ عن الطاولة بخفَّة.. وفورما تأكدت أن المتصِّل رقمي؛ كبستُ زر الإلغاء رفضا للمكالمة.. لكن الزرَّ ما عاد فعالا هذه المرة؛ واستمر الهاتف في الرنين والاهتزاز مُظهرا أرقامي العشَرة على شاشته اللعينة!..

فـدبَّ القلـق إلـى شـراييني، واسـتحكمتِ الحيـرة فـي أركـاني.. فمـا كـان منـي إلا قبـولُ المكالمـة، ووضـعُ السـماعة علـى أذنـي لعلـي أسـمع صـوتا يبـدد عنـي حيرتـي!.. اسـتغرق إنصـاتي عشـر ثـوان قبـل أن أسـمع صـوتا كنشـيش المـاء المغلـي؛ فأبعـدت الهـاتف عـن أذنـي والدهشـة تملأنـي، ثـم أعدتـه إليهـا والفضـول يتملكنـي.. إلـى أن سـمعت صـوتا غريبـا يجمـع مـا بـين العـواء والصـرير وصـفارات الإسـعاف؛ فألقيـت الهـاتف مـن يـدي مرعوبـا وقـذفت بنفسـي إلـى السـرير دون وعـي أو شعورا!..

استمرت الأصـوات لـدقائق خلـتُ فيهـا أن الهـاتف مسـكون، قبـل أن أسـتجمع شـجاعتى وأعمـد إليـه متجـاهلا مـا يصـدرهُ مـن أصـوات.. ثـم وضـعته علـى أذنـي وشـرعت فـي الاستفسـار كأحمق يحدث نفسه:

- ألو!.. ألو!.. من هناك؟!.. من المتصل؟!.. ألو!

انقطعــت الأصــوات انقطاعــا ظننــتُ معــه أن شخصــا مــا سـيجيبني، غيـر أننـي سـمعت صـوتا أشـبه مـا يكـون بعـزف نـاي يصـدر مـن كهـف سـحيق!.. فـامتلأ قلبـي مـن الرهبـة وهممـت بقطـع الاتصـال؛ لكـن المكالمـة أبـت أن تنقطـع رغـم الكـبسِ المتكـرر.. ولجـأت إلـى الضـغط علـى زر التشـغيل أمـلا فـي إغلاقــه.. لكــن، وكمــا بــاءت الأولــى بالفشــل، بــاءت التاليــة كـذلك؛. الشـيء الـذي دفعنـي لفصـل بطاريتـه ورميـه بعيـدا عـن أنظاري لعلي أتحرر من الذهول والرعب الذي اعتراني..

مــرت ســاعة مــن الوســواس أعجزنــي فيهــا عــن النــومِ سـلطانُ حيرتــي، وطفقـت أرنـو إلـى السـقف متمنيـا أن أحظـى بنــومتي.. إلــى أن نســيت النــوم تمامــا، وطلّقتــه طلاقــا بفعــل الهاتف الذي رنَّ من جديد!..

لـم أكلِّـف نفسـي السـؤال عـن إمكانيـة حـدوث ذلـك.. فقـط وجمــت فــي مكــاني منصــتا للــرنين الــذي كــان لحظتهــا أكثــر إرهابا مـن دوي القنابـل، وإلـى كـمّ الهـواجس التـي تكَـوْثرت فـي دمـاغي وشـلَّتهُ عـن التفكيـر.. كنـت أجعـل أصـابعي فـي آذانـي تــارة، وتــارة أجعــل فيهــا أطــراف منــامتي، وأحيانــا كنــت أستغني عن ذلك وأقف في سريري مشرئبا كسرقاط..

وفـي اللحظـة التـي تخيلتنـي فيهـا ليـث البـراري؛ قفـزت مـن مكــاني متوهمــا الشــجاعة وأنَــرْتُ غرفتــي.. ثــم عمــدت إلــى الهــاتف الــذي كــان لا يكــف عــن الــرنين، وحــدقت إلــى شاشــته لأرى عليهـا رقمـي مـن جديـد؛ ثـم صـرخت وقـد تـردد صـوتي في أرجاء البهو:

- ما هذا الهراء؟؟!!!.. أي هاتف لعين أنت؟!

حينهـا انقطـع رنـين الهـاتف وانقطـع معـه صـوتي والدهشـة تلُفُّنــي.. ثـم طفقـت أنظـر إليـه بترقـب وارتيـاب إلـى أن رن رنـة أفزعتنــي، وظهــرت علــى شاشــته رســالة واردة تقــول: " أنــا هاتفك..."

فألقيتـه مجـددا وهرعـت إلـى سـريري طلبـا للنجـدة مـن هـذا العــالم المجنــون، ومكثــتُ فيــه لــدقائق مــرت وكأنهــا سَــنون.. قبـل أن يـرِن مـرة أخـرى، وأقتـربَ منـه فـي حـذر كقـط فـي أنـاة.. إلـى أن اسـتطعت الحصـول علـى رؤيـة قريبـة لشاشـته، وقـرأت الرســالة الثانيــة التــي تقــول: "لا تســتغرب!.. نعــم أنــا هاتفــك نوكيــا 1100.. أنــا صــنعٌ فنلنــدي وتركيــب تايلانــدي!.. إن هممــت بـإتلافي مـرة أخـرى؛ سـتدفع الـثمن غاليـا، وسـتندم حيـث لـن ينفعك الندم!.."

عندئــذ زال الرعــب عنــي وانتفخــت أوداجــي مــن شــدة الغضــب.. ثــم عصــرت الهــاتف بقبضــتي، وأدنيتــه مــن شــدقي قائلا بصوت مازجَ بين العنادِ والتحدي:

- اللعنــة عليــك!.. اللعنــة علــى الفلنــديين الــذين صــنعوك وعلـــى التايلانـــديين الـــذين ركّبـــوك!.. مـــن أنـــت لتهددني؟!.. إنك لاشيء يا حقيرا!..

ثــم أخــذت مجرفــا ومعــولا مــن القبــو.. وأخــذت طريقــي إلــى الغابــة وضــوء مصــباحي يســبقني إلــى حتــف الهــاتف تحــت الأمطار الغزيرة..

وبمُجــرد أن صــرتُ فــي عمــقِ الأجمــة ألقيــتُ بالهــاتف، وضــربت بمعــولي علــى الأرض مــرددا: " بعــد قليــل ســتدرك معنــى النــدم يــا حقيــر!.. ســأُقبركَ فــي حفــرة عمقهــا متــران،

وسأمضـي حيـاتي مسـرورا فرحـان؛ عندئـذ سـتعلم الـدنيا أيُّنَـا الندمان!.."..

دفنـتُ اللعـين، وحملـتُ مُعـداتي منشـدا تـرانيم النصـر.. مسـتمتعا بـوميض البـرق الـذي تُضـاء لـهُ الأفنـان، مسـتطربا هزيم الرعد الذي يرعِدُ الأغصان..

***

في صباح اليـوم المـوالي استيقظت علـى وقـع طـرق حـاد.. فهرولـتُ إلـى البـاب أرفـل فـي سـروالي الفضـفاض، وفتحتُـه لأفاجـأ بحشـد غفيـر مـن معـارفي وممـن ليسـوا مـنهم!.. فحـدقت إلـى الجمـعِ فـي ذهـول، قبـل أن يجـذبني أحـدهم مـن تلابيبي ويرميني خارج الباب قائلا والغضب يخنق نبراته:

- ألا تسـتحيي يـا هـذا!.. ترسـل لزوجتـي رسـائلا فـي آخـر الليل لتخبرها بأنني متزوج من أخرى يا زنديق!

انعقـد لسـاني عـن الكـلام وطفقـتُ أنظـرُ إلـى الحضـور فـي حيرة.. إلى أن أمسكني أحدهم من شعري قائلا:

- بسـبب كـذبتك البشـعة تركـت عملـي، وقطعـت مسـافة طويلـة دون فائـدة تُـذكر!.. بـأي ذنـب اسـتحققت أن تكذب علي مخبرا بموتِ أمي!..

قبـل أن تنبـريَ إحـداهن للحـديث وهـي تشـتكي بصـوت يكاد يكون لهاثا:

- لقد أرسل الوغد لي رسالة يخبرني فيها أن ابني مات شنقا وسط الحرم الجامعي!..

عندئذ أطرقت رأسي ضاحكا.. وشرعت أردد كالمجنون:

- كان علي أن أحرقك يا نوكيا لا أن أدفنك!.. كان علي أن أحرقك يا نوكيا لا أن أدفنك!..

عندما قررت الحيوانات أن تثور..

أسـوة بالغابـات المجـاورة قامـت غابتنـا بثـورة!.. فلمـا تبـين مكـر الـذئاب التـي انفـردت بالسـلطة لعقـدين مـن الـزمن؛ قمنـا بـإزالتهم عـن سـدة الحكـم، ونصَّـبنا معشـر الدببـة - بقيـادة بِنكـي الظريف - ولاةً لأمورنا ومدراءَ لشؤوننا..

بيـدَ أننـا وبعـد مـرور سـنة كاملـة مـن حكـم الدببـة لـم نلمـس أي تغييـر عمـا كانـت الظـروف الاقتصـادية والاجتماعيـة عليـه، بـل علـى العكـس مـن ذلـك، ارتفعـت الأسـعار بشـكل جنـوني وازدادت قيمـة الضـرائب علـى كـل واردة وصـادرة، واضـطررتُ - أسـوة ببقيـة الحيوانـات - إلـى انتهـاج سياسـة التقشـف مغيـرا نظـامي الغـذائي الـذي ترعـرت عليـه.. فغـدوت هـرّا عاشـبا يكتفـي بنبـات الزعتـر والنعنـاع، بعـدما كنـت قطـا لاحمـا يفتـرس كالسنوريات والسباع..

أمـــا الـــرئيس "بنكـــي" فلقـــد أدرك كمـــا أدرك أســـلافه، أن اللعبــة السياســية أعمــق بكثيــر مــن حماســة الخطــب وترديــد الشــعارات، وأن الإصــلاح الحقيقــي يتطلــب امتلاكنــا لاقتصــاد قــوي مــن شــأنه تحقيــق رفاهنــا وكرامــة عيشــنا.. وفــي غيــاب هــذا الاقتصــاد القــوي وافتقارنــا لوســائل الانتــاج؛ كــان مــن العســير أن نواكــب تطــور الأمــم، أو أن نجــد لأنفســنا طريقــا نتسلق عبـره نحـو القمـم.. فـاكتفى بنكـي بقطـع الوعـود وتسـلية الشــعب بنكاتــه التــي يلقيهــا مــن حــين لآخــر عبــر الإذاعــة الوطنيــة.. وقــررت تلــة مــن المفكــرين أن تتــولى زمــام الأمــور؛ فأنشــأت حزبــا ســمّتهُ "حــزب الصــحوة" واتخــذَتْ دارا أطلقــتْ عليها دار الندوة..

كانـت هـذه الـدار ملجـأ لشـكايات المـواطنين التـي لا تنقطـع، ومسـرحا لنقاشــاتهم التــي تنتهــي.. ومــن أبــرز الأعضــاء الــذين ســطع نجمهــم وذاع صــيتهم هنــاك، أذكــر الثعلــب الخطيــب "غـزوان"، والـديك الحكـيم "لُهيـان"، وحيوانـا صـغيرا لـم أحسـن تحديـد جنسـه، كـان هجينـا مـا بـين الـنمس والسـعدان، وكـانوا يطلقــون عليــه " اللطيــف نعمــان".. لقــد كــان هــؤلاء يتمتعــون بتلــك الكاريزمــا القويــة التــي تجــذب الحيوانــات عــلاوة عــن الحكمــة وفصــل الخطــاب الــذي يُقنــعُ العقــول ويوحــد الآراء، فكـان مـن الطبيعـي أن تلتـف حـولهم الجمـاهير؛ ويصـبحوا مـن أبرز المشاهير..

وذات يـوم، وبينمـا كنـت منشـغلا بتنـاول النعنـاع علـى رابيـة تشـرف علـى دار النـدوة، تسـلق اللطيـف نعمـان شـجرة الأرز العملاقة ونادى بصوته الجهوري مُعلما:

- يـا معشـر الحيوانـات!.. إن للثعلـبِ غـزوان كلامـا وجـبَ أن تسـمعوه، وخطابـا يلـزمُ أن تعـوه!.. لقـد دقت ساعة الحقيقة، ولقد آن أوان الوقيعة!..

فتوقفـتُ عـن مضـغ النعنـاع وقـد اقشـعر بـدني وانـتفش وبـري.. وتقـاطرت جمـوع الحيوانـات علـى دار النـدوة وهـي تهتـف باسـم غـزوان.. ونُصـبَت المنصـةُ، وأقبـل الـزعيم علـى ظهـر حصـان.. وامـتلأت الـدار عـن آخرهـا، وتسـلقَ المتـأخرون الأشـجار والجـدران.. ثـم نـزل غـزوان عـن حصـانه، واعتلـى المنصـة فـي تـؤدة ووقـار، وتنحـنح قلـيلا، ونقـر علـى الميكروفون نقرتين ثم قال:

- يـا معشـر الطيـور والسـباع والبهـائم!.. يـا سـكان غابـة الأمجـاد والعظـائم!.. إنـي لَواحـدٌ مـنكم، مـأكلي مـأكلكم ومشـربي مشـربكم.. همـي همكـم، ولحـم كتفـيَّ مـن خيـركم!.. لقـد سـعينا معـا لمـا فيـه الخيـر لوطننـا الحبيـب، وانتَخبنـا عبـر السـنين رغبـة فـي الازدهـار.. لكننـا لـم نجـن إلا الخيبـة والنحيـب، والشـكوى للـه القهـار!.. أمـا اليـوم، وقـد علِمنـا سـبب الفتنـة ورأس الفسـاد، فـلا شـكوى ولا نحيـب، بـل هي الحرب والانتقام!

فتــوالى التصــفيق وتعالــت الصــيحات.. وتــابع الــزعيم بلهجة قوية النبرات:

- إنــه الضبع ســامْ!!.. نعـم إنــه الشـرير ســام!.. إنــه نفسُــه صــاحب المــزارع والمراصـد والأفــلام.. إنــه يغـرر بصـغارنا ويغـوي ضِـعافنا.. يغتنــي مـن تعَـب عُمالنــا، ويســمم بــرَك مائنــا.. إنــه يبتــزُّ مرشــحينا وسياســيينا، ويســتأجر كُتّابنــا وصــحافيينا.. إنــه ينشــر الأمــراض لكــي يبيــع أدواءهــا، ويُشــعِل الحـروب ليبيـع سـلاحها.. إنـه لَيُنَمِّـقُ الكـلام ويـدعو إلى السلام وهو نفسهُ الشيطان عدو السلام..

فضـرب بقبضـته علـى المنصـة، وانفعلـت لضـربته الجمـاهير بمــا لايُقــاس.. وارتفعــت اللافتــات، وكُســرت المقاعــد مــن شــدة الحمــاس.. ثــم وثــب الــزعيم منخرطــا بــين الجمــوع، وقــال متحمسا مُغرورقَ العينين بالدموع:

- سـنهجم معـا علـى وكـرِ سـام!.. ولـن نعـود إلـى ديارنـا إلا وهـــو ذليـــل بـــين أيـــدينا!.. وبعـــد أن نحاكمَـــه سـنعدِمه ولـن ندفنــه، بـل سـنرميه للخنــازير لتأكلـه! فهــو دنــس يمشــي علــى الأرض، وإنــي لا أرى أنَّ الأرض تَقبَله..

فتراصــتِ الصــفوف وانتظمَــت، ورُفِعــتِ الرايــاتُ ورفرفــت، ودُقَّت طبول الحرب!..

كنا نسير إلى وجهتنا في جو ملحمي يُعجَبُ فيه الناظر بكثرتنا.. نردد أناشيد النصر، ونغني لمجدنا وعزتنا.. لكن، وعند أول حقل حشيش نصادفه في طريقنا، انشق عنا ربع الجيش وتحلقوا حول حريق وهم يتلذذون باستنشاق الدخان.. ذلك أن رغبتهم في الحشيش والانتشاء كانت أقوى من الرغبة في المجد والانتصار.. فتركناهم وقد خابت ظنوننا من صنيعهم، وتابعنا سيرنا إلى الوكر الملعون..

وفي منتصف الطريق، مررنا على شاشة من شاشات الضبع سام.. كانت الشاشة تعرض فيلما عن مجموعة من الضباع تقتل أسدا وتُخلِّص العالَم من شرِّه؛ لينشقَّ عنا نصف الجيش ويتجمعوا حول الشاشة منذهلين وقد ألقَواْ بأسلحتهم وزادهم.. فغصت حناجرنا من مرارة الخذلان، ولَعنَّا هؤلاء الذين فضلوا السباحة في عالم الخيال على شرف الحرية والقتال.. ثم تابعنا تقدمنا نحو الوكر الملعون..

ولما صرنا على مقربة من الهدف، مررنا على ملعب من ملاعب الضبع سام.. لقد صادف مرورُنا مباراة من مباريات الكأس التي ينظمها كل شهر.. فانشق عنا هذه المرة معظم ما تبقى من الجيش، وأقبلوا على مشاهدة النزال الكروي في لهفة وسرور.. فلَعنَّا هؤلاء الذين فضلوا مشاهدة نزال حول كرة منفوخة بالهواء على المشاركة في نزال يحقق لهم السعادة والرخاء، ثم تابعنا طريقنا دون أن تثنينا الخيانة عن عزمنا.. وفورَ وصولنا إلى الوكر المعلوم؛ حدث ما لم يكن

في الحسبان!.. لقد انقلبت علينا من الجيش جماعة من القردة والخنازير والجرذان، واتضح أنهم كانوا عملاء للضبع سام..

بعد ساعة من القتال، تمكنا من القضاء عليهم، وصلبناهم على جذوع الشجر، ليكونوا درسا وعبرة لمن اعتبر.. ثم وقفنا كالبنيان المرصوص أمام الجحر، ونادى الزعيم الضبعَ الخسيس قائلا:

- فلتخرج يا سام!.. فلتخرج يا لعين!.. إنك لن تنجوَ مني ولو جئتَ بعفاريتك وفراعينكَ كلها.. فلتخرج يا لعين!.. إنني نهايتك ونهايتُهم أجمعين!..

عندئذ سمعنا جلبة وصخبا عند مدخل الجحر، ولاح منه خيال آلة عملاقة.. فوجم الجيش في ذهول، وانكشفت الآلة تحت ضوء الشمس؛ ليتبيَّن أنها دبابة لم نر لها مثيلا من قبل.. وقبل أن يتمكن أحدنا من الإعراب عن دهشته مما يراه، انطلقت قذيفة مُهولة من فوهة مدفعها؛ وانفض الجمعُ وسط الصراخ والعويل.. فأغميَ على الزعيم وقد اعترته نوبة من الشخير، وحلَّق لُهيان في السماء فارًّا وهو الذي لايطير، فيما هربتُ بكل ما تملكهُ قوائمي الأربعُ من سرعةٍ وأنا أردد: " النجاةَ النجاةَ! النجاةَ من الشريرا!"...

في اليوم الموالي اجتمعنا في دار الندوة كالمعتاد.. اجتمعنا وكأن شيئا لم يقع.. تحلقنا حول طبق من الثريد

الـذي تنتجـه مطـاحن الضـبع سـام، وشـرعنا فـي الأكـل ونحـن نسـتمتع بنكـات العـم بنكـي الـذي لا يكتفـي مـن التهـريج.. لكننـا لـم نـنس أمـر القصـاصِ والانتقـام.. لقـد أجلنـاه فقـط!.. أجّلنـاه إلـى أن ينشـأ جيـل فـي مقـدوره أن يقـاوم الإغـراء وسـفاهة الأحلام!..

بين بطاش وحمداش..

إن الزغاريد التي تسمعونها وهذا الجمع الغفير الذي يجتاح الشارع أمام أنظاركم لايفتأ عن الغناء دقيقةً، لكنَّه لا يقصِدُ زفافا ولا عقيقةً، بل هم أتباع البرلماني بطاش، وهم الآن يطوفون بالمدينة ويملأون أرصفتها بالصور والمنشورات دعايةً لحملة مرشحهم العتيد..

الكل يعلم أن بطاش سارق محتال يسرق نصف الميزانية المخصصة للمدينة، ويرقِّع الشوارع والطرقات بالنصف الآخر.. لكنهم لا ينكرون رعايته للعجائز وإعالته للأرامل وتكفله بالأيتام، ويدركون جيدا أن نصف السكان يعيشون من العمل في معامله وبساتينه ومتاجره المبلطة بالرخام.. وإن أردتُ اختصاره في كلمتين، فسأقول عنه "وغد كريم"..

طيلـة خمـس وعشـرين سـنة، لـم يكـن لهـذا الوغـد الكـريم منـافس علـى السـاحة.. لكـن الانتخابـات الماضـية، شـهِدت بـزوغ نجـم جديـد، إنـه لاعـب واعـد علـى السـاحة السياسـية ومنـافس شـرس كـاد أن ينـزع البسـاط مـن تحـت أقـدام بطـاش لـو لـم يـتمكن هـذا الأخيـر مـن إقنـاع مرشـح فـي الـدقائق الأخيـرة بـأن يبيعــه الأصــوات.. إنــه حمــداش، رجــل شــريف، لكنــه فقيــر، والفقير في أنظار الناس حقير ما لم يكثر ماله وتنمو ثروته..

علـى الـرغم مـن ذلـك اسـتطاع حمـداش أن يقنـع خصـوم بطـاش وأعـداءه بالتصـويت عليـه، واسـتطاع بعفتـه وأمانتـه أن يسـتميل بعضـا ممـن لا تستسـيغ ضـمائرهم أن تُبـاع بـالمئتي درهـم التـي يـدفعها بطـاش لأنصـاره فـي كـل حملـة.. فهـؤلاء المتعففــون يــدركون جيــدا أن بــيعهَم لضــمائرهم بــأربعٍ وخمسـين سـنتيما لليـوم ذل مـا بعـده ذل.. ويـدركون كـذلك أن الشـطائر التـي يوزعهـا بطـاش أثنـاء حملاتـه تضُـمُّ سـردينا مُنتهيَ الصلاحية..

ذلـك السـردين الـذي امتنعـت دومـا عـن أكلـه كلمـا حضـرت خطبـة مـن خطبـه التـي تفتقـر إلـى المنطـق والقافيـة.. أذكـر أنـه قـال فـي خطبـة الأمـس: " يـا سـكان مـدينتي الجميلـة، إنـي ابــنكم ومــنكم وإلــيكم.. لــن تشــكو المدينــة مــن نقــص فــي وجـودي.. وإنـي لـن أنقـل عربـات الخضـر والفواكـه مـن مكانهـا رغمـا عـن أنـف وزارة التخطـيط".. فصـفق أصـحاب العربـات،

وصفق أبناؤهم، وصفقت أمهاتهم.. ثم غادرت المكان إلى حيث يخطُبُ حمداش..

أما حمداش فلقد استهل حملته بآيات من الذكر الحكيم، وحشد حوله العديد من رجال التعليم مع زوجاتهم وأبنائهم والبعض من جيرانهم ممن لا ناقة ولا جمل لهم في ميدان السياسة.. ثم سرد على أسماعنا نبذة من بطولات الصحابي الجليل خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولما وصل إلى الجزء الذي تنكسر فيه السيوف في يده من شدة المعركة؛ تحمس أحد الشيوخ الحاضرين مما يسمعه، ولوح بعصا يحملها في يده دون وعي منه وهو يتخيل نفسه في المعركة؛ فأصاب شيخا بجانبه وأفقده وعيه، قبل أن ينفعل ابن المُصاب؛ ويضربَ الذي ضربَ أباه متهما إياه بالانتماء بعصابة بطاش.. فتشابكت الأيادي، واختلط الحابل بالنابل، وقامت القيامة.. لأغادر جمعهم هاربا لا ألوي على شيء وأهرعَ إلى صديقي سمعلوش عند الخربة التي يسكنها وفي ذهني سؤال وحيد لا أعرف له جوابا:

- قل لي يا سمعلوش!.. لماذا يفترق الناس دوما عند الانتخابات؟! لمَ لم تجتمع البشرية قط في اختياراتها على رجل واحد؟! لمَ الفرقةُ دوما؟!

فأطل سمعلوش برأسه الصغير من النافذة، وأجاب وهو يمضغ شيئا لا أعرفه:

- الأذواق تختلف يا صديق!.. والناس في ما يعشقون فرق ومذاهب..
- ألا يمكنُ أن يجتمع الناس على حب شخص واحد؟!
- بلى يا أحمد!.. لكنهم لن يرضوا عنك جميعا ولو أحبوك!
- وما المانع؟!
- الناس لا يحبون من ينافسهم.. ولكي تحافظ على رضاهم عليك أن تكون دونهم منزلة، أو أن تتفوق عليهم بأشواط!..

ثم قفز سمعلوش من نافذته واستقر أمامي مواسيا بعدما رأى علامات الحزن علي:

- لا يجزعنَّكَ عجزك عن التعامل مع الجميع؛ فالناس معادن.. ولكي تقايض الجميع يجب أن تكون ذهبا!..

فالتفتُّ إليه مستغربا نصيحته المجانية، وخيبتُ ظنه:

- أيها الغبي إني لا أشكو لك حالي، بل حال شعبي..

فجحضَتْ عينا سمعلوش من الصدمة، وقال بنبرة طفل مرعوب:

- وما العيب في أن تتمنى الحصول على حب الآخرين!

- إن حب الأخرينَ لي لن يدفع عني شَرَّ القدر، كما أن كرههم لي لن يُبعِدَ عني خير القدر.. لهذا السبب لا أكثرت لمشاعر الآخرين!
- يالك من بغيض متحجر القلب!

وفي تلك اللحظة مر بجوارنا كهل أشيب ممن كانوا في حملة حمداش، كان يذرف الدموع وعلى وجهه معالم الأسى والحسرة.. فترقَّقتُ لحاله، واقتربت منه مستخبرا عن حزنه:

- عذرا سيدي إن تطفَّلت عليك.. ما بك تبكي؟!

فكفكفَ الرجل دمعه ورمقني والحزنُ في عينيه يهدّ الجبال، ثم بصوت متقطع من أثر البكاء قال:

- إنني عامل بسيط من عُمال مصانع بطاش، وزوجتي تعمل في بستان من بساتينه، وأبنائي خدمٌ في متاجره.. ولمَّا علِم أنني عازم على التصويت للنزيه حمداش؛ ثارت ثائرته! ومنعني من عملي، وهدد بطرد زوجتي وأبنائي! وأنا الآن محتار! ولا أدري أي الرجلينِ أختار!..

أكمل الكهل كلامه، وشرع في البكاء من جديد!.. أما أنا فلقد احترتُ مقدارَ حيرته!.. هل يصوتُ لحمداش ويقطعُ رزقَهُ؟! أم يصوتُ لبطاش مخالفا ضميره؟!.. صحيحٌ أن الأول نزيه لكنه مُفلِس فقير لن يوظِّفه ولن يوظِّف عياله!

أمـا الأولُ وإن كـان لصـا سـراقا فإنـه يملـك وسـائل الإنتـاج ويملكُ العمل الذي يحتاجه الرجلُ وأهله!..

عندئـذ همـس سـمعلوش فـي أذنـي.. وربَّتْـتُ علـى كتـف الرجـل الباكي ناصحا:

- اسـمع!.. أمامـك حـل مـن حلـين، أن ترضـي ضـميرك وتفقـد عملـك وعمـل زوجتـك وأبنائـك، أو أن تخـالف ضـميرك وتحـافظ علـى عملـك الـذي تعتـاش منـه.. علمـا أن الخيـار الأول قـد يُفقِـدكَ ودَّ أسـرتك، ويفـتح عليـك أبـواب فتنـة لا علـم لـك بنتائجهـا، وربمـا قـد يصـل بـك المطـاف إلـى الفقـر!.. وأنـت تعلـم جيـدا بـأن الفقـر كُفـر! فـلا تسـتغرب إن وصـلَ بـك المطـاف إلـى سـبِّ القدر!..نصـيحتي لـك ألا تكـون أنانيـا باتبـاع ضـميرك، وأن تفكِّر مليا في مستقبل أهلك ومصيرك!..

خـرَّ الكهـل علـى ركبتيـه وقـد ازداد بكـاؤه!.. ثـم رفـع رأسـه وقـال متحسرا وقد برقت عيناه من عَبَراتِه:

- لكـن بطـاش لـص محتـال!.. كيـف تريـدني أن أصـوت عليه؟!

فتأملتُ في حاله مليا.. ثم أسديتُ له نصيحة أخيرة:

- فلتصـوت علـى بطـاش.. وادعُ لـه بالهدايـة والصلاح!..

رزم الأحلام..

دوما ما أحلم بشخص يعطيني رزما من المال!.. وعادة ما تكون تلك الرزم وفيرة الأوراق، جديدةً ناصعة الألوان..

وبمجرد أن أنتهي من عدِّها متخيلا ما يمكنني شراؤه بها؛ أستيقظ من النوم متحسرا على ذهاب المال، لاعنا الحلمَ المستفز!..

وبلغ هذا الاستفزاز حده في حلم لم أنساه قط، عندما بدأ هذا الشخص الذي يعطيني المال بالتهكم والسخرية من تبخر المال فور استيقاظي وعدم استفادتي منه.. أذكر أنه قال ضاحكا:

- بإمكانك عدُّ أموالك، لكنها ستختفي فور استيقاظك!..

بيد أنني.. وضعت حدا لتلك الاستفزازات ليلة أمس عندما تمكنت من تسديد لكمة إلى وجهه قبيل لحظات من عودتي إلى عالم اليقظة!..

الحقائق الكاذبة

هنـاك مقولـة لأحـدهم تقـول: " تطـوف الكذبـة حـول الـدنيا قبـل أن تسـتعد الحقيقـة للانطـلاق".. ومظـاهر هـذه الحقيقـة عديـدة فـي عالمنـا العجيـب هـذا، فمعظـم مـا يروجـه النـاس مـن أخبـار، يكتشـفون أنـه كـذب مـع مـرور الأيـام.. لهـذا السـبب قـذفتُ بالتلفـاز مـن نافـذة غرفتـي، ونزلـت إليهـا وفـي يـدي عـود ثقـاب وعبـوة بنـزين، ثـم أُحرقتهـا، واسـتمتعتُ بسـماع أحشـائها وهي تأن في الجحيم..

قبـل أن يظهـر سـمعلوش مـن العـدم وقـد جذبـه بهـاء النـار وسحرها، ويجلسَ على صخرةٍ وهو يقول:

- أهكـذا تعامـل أصـدقاءك يـا ابـن آدم؟!.. تُقـيم حفلـة ألعاب نارية دون علمي!

فرمقته بنظرة استغباء وقلت له:

- إنـه مجـرد تلفـاز لعـين! ولـيس بالأهميـة التـي يجـب أن أدعوك لأجلها!..

رد مستغربا:

- ولمَ أحرقته؟!

فأجبته وقد اقتعدت مقعدا بجانبه:

- لقد سئمت منه!.. إنه يصر دوماً على تلقيني نمط حياتي.. لقد سئمتُ تلك الإشهارات التي تعاملني كبهيمة لا تفهم، لقد مللت من أولئك المذيعين الذين يطلون وجوههم بشتى المساحيق، قبل أن يطلوا أخبارهم بشتى الأكاذيب.. لقد ضقتُ درعا بتلك المسلسلات الطويلة التي ترصد حياة شرذمة عبر آلاف الحلَقات، وتُلهي الناس عن الاستمتاع بمسلسلهم الحقيقي!

حينها ابتعد سمعلوش عن الصخرة وتساءل متعجبا:

- وما هو مسلسلهم الحقيقي؟!

فأجبته وأنا أشيح بوجهي عنه إلى النار التي حولتِ التلفاز إلى رماد:

- إن مسلسلهم الحقيقي، هي حياتهم!..

تغيرت ملامح العفريت وكأنه سمع لتوه كلاما فارغا.. وأخرج من جيب ظهره علبة مستطيلة متوسطة الحجم كُتِبت عليها طلاسم لم أحسِن فك رموزها، ثم شرع يلوح بها أمام أنظاري وهو يقفز فرحا:

- أتعلم ما هذا؟!
- ومن أين لي أن أعلم يا بليد؟!

فجلس على الصخرة مجددا، وقال مخبرا:
- إنـهُ "دووم دوم" أشـهر مسـحوق غسـيل فـي عـالم الجن!

سكتُّ للحظات وأنا أحاول استيعاب الهراء الذي يحصل أمامي.. ثم أردف بعدما لاحظ معالم الازدراء في نظراتي:
- إن بداخل هذه العلبة بطاقة رابحة!
- وما نفعُها؟!
- يا أحمد إنها عبارة عن جواز مرور لأي عالم تريد السفر إليه، سواء كان واقعيا أو خياليا!

ثم فتح العلبةَ وتناثر مسحوقها الهلامي على الأرض، قبل أن تطفو على سطحه بطاقة فضية اللون ويلتقِطَها متلهفا:
- ها هي ذي!.. إلى أين تريد أن نسافر هذه المرة؟!..

ترددت قليلا.. ونظرت إلى البطاقة وأنا أجرد احتمالاتي.. ثم أجبته بعدا أن تذكرت حادثة حصلت معي منذ طفولتي:
- أريد أن أسافرَ إلى قصة معينة لأقابل شخصية من شخصياتها!..

استغرب متسائلا:

- قصة؟!!.. أي قصة؟!
- قصةُ الثعلب والغراب..
- ولمَ هذه القصةُ دون غيرها!..
- لأنها تسببت لي في فلقةٍ من الاستاذ!.. كنت تلميذا في الصف الثالث وقتها، وكنتُ مطالباً بحفظ حوار الثعلب وآدائه كقطعة مسرحية.. لكنني أبيت أن أكون ثعلبا ورفضتُ الآداء؛ فاستحققتُ العقاب!..

قطب سمعلوش حاجبيه عابسا، وقال متعاطفا:

- مساكينٌ أنتم!.. يُمارسون عليكم عنفا مزدوجا!.. يفرضون عليكم موادًّا لا تختارونها، ثم يعاقبونكم إذا كنتم لا تُحسِنونها!..

فابتسمتُ في وجهه وقمت عن مقعدي وأنا أستعجله:

- فلتنطلق بنا إلى الثعلب!.. إنني متشوقٌ لرؤيته!..

نط سمعلوش عن الصخرة متحمسا.. ثم ضغط على البطاقة وهو يُمسِكُ بيدي.. قبل أن ينقلبَ بنا المكانُ إلى غابةٍ شديدةِ الخضرة، كثيفة الأغصان، تمتلئ جنباتها بأحجار الصّوان، ويتردد في أرجائها نهيق الغربان، وقبل أن أفكر في أي زمان نحن وفي أي مكان، نطق سمعلوش مخبرا:

- مرحبا بك في العام الثاني للميلاد، أنت الآن في الشرق الأوروبي، وتحديدا في الدولة التي تسمى "جورجيا" في عصرنا..

ثم أشار إلى جحر تحت ربوة لا تبعُد عنَّا كثيرا.. وقال:

- إنه جحر الثعلب المنشود!.. أمهلني لحظةً وسأناديه لك..

فانطلق سمعلوش مسرعا وقد رسم مساره كمحرك نفاث، ثم لبث عند مدخل الجحر برهة.. قبل أن يخرجَ إليه الثعلب الهزيل العجوز مُطرَقَ الرأسِ في خطوات متثاقلة، ويشرَعَ العفريت في الحديث إليه..

رفع الثعلب العجوز رأسه وهو يرمقني بنظرات التعجب والاستغراب.. ثم أقبل برفقة سمعلوش إلي وتكلم بصوت أجش النبرات مظهرا تعاطفه:

- لقد أحزنني ما سمعته! يؤسفني أن تنال عقابا لا تستحقهُ عن كذبةٍ لا تستحق أن تُنشرَ وتدرَّسَ في المدارس!..

فحدجته بنظرات الاستغراب.. وسألتهُ قائلا:

- عن أي كذبة تتحدث؟!

أجاب ضاحكا يسعل:

- عـن القصـة الزائفـة التـي أخبـروكم بهـا عنـي!.. عـن قصـة الغراب والجبنة!..

نظــرت إلــى ســمعلوش مســتنكرا مــا أســمعُه.. ثــم أردف الثعلب طالبا:

- هــلا ســردتَ علــى مســامعي القصــة التــي أخبــروك بهــا عني لكي أتأكد؟!

ففركتُ رأسي مضطربا.. ثم أخبرتُه بها:

- يقولـون أنـك اشـتهيت جبنـة كانـت فـي منقـار غـراب علـى غصـن شـجرة!.. ولمَّـا استعصـى عليـك الوصـول إليهـا، قـررت أن تخـدع الغـراب؛ فمـدحتَ صـوته طالبـا منــه الغنــاء، فاســتجاب لــك بنعيقــه، وســقطتِ الجبنــة من منقارهِ ثم أخذتها!..

فــانفجر الثعلــب ضــاحكا فــيم كنــتُ أبــادل ســمعلوش النظرات متعجّبا.. ثم قال لاعنا:

- اللعنـــة علـــى الأوغـــاد!.. يطمســـون الحقيقـــة، ثـــم ينشرون الأكاذيب!.. اللعنة عليهم!

لينبريَ سمعلوش للحديث متسائلا:

- أتقصدُ أنك لم تسرقِ الجبنة؟!

وينفيَ الثعلب وهو يثني رأسه قائلا:

- لا! لا!.. لم يحدث ذلك مطلقا!..

ثم أردف يقول:

- سأخبركم بالقصة كما وقعت.. ذات يوم ممل، وبينما كنت عائدا إلى جحري بعد خرجة صيد فاشلة.. أسقط أحد الأولاد جبنة، فالتقطتها عن الأرض وذهبت بها إلى الجحر وأنا أشكر القدير الذي لم يردني خائبا.. تركت الجبنة عند مدخل جحري ريثما آتي ببقية أرنب ادخرتها سالفا، وعندما عدت فوجئت بالغراب يأخذ جبنتي بمنقاره ويطير بعيدا إلى شجرة الأرز.. فلحقت به عازما على استرداد جبنتي، ولما رأيت ما عليه من ضعف ونحول؛ آثرت أن أتركها له من باب الإحسان، لكنني اشتهيت أن يُسمعني من بعض ألحانه، فطلبت منه الغناء ثمنا للجبنة.. وبمجرد أن فتح منقاره، سقطت الجبنة وأخذتها.. هذا ما حدث، ولا أدري لمَ يتهمونني بالمكر والخداع؟!..

أنت قصتي

فكـرت فــي كتابــة قصــة، قصــة فريــدة، لا تخــتص بزمــان أو مكان، أن تكون حية..

لـذلك قـررت أن أجعلـك قصـتي أيهـا القـارئ، أنـت تعلـم علـم اليقـين أننـي كتبتهـا منـذ مـدة، لكنهـا تخاطبـك وتتفاعـل معـك بشــكل مباشــر.. ستســتغرب الأمــر، هــذا إن لــم تبتســم، وقــد يعتريــك فضــول لمعرفــة مــا قــد تــأتي بــه الأســطر القادمــة.. صراحة عنـدما كتبـت هـذا السـطر الـذي أنـت فيـه أقسـم أننـي لـم أكـن أعـرف مـا سـأكتبه فـي الـذي يليـه، مثلـك تمامـا فـي هـذه اللحظـة، فقـط سـرقت انتباهـك للحظـة مـن الـزمن لكـي نصـنع معـا قصـة مـن لا شـيء.. اعـذرني، فعنـدما لا أجـد شـيئا لأفعلـه؛ أكتب مثل هذه الترهات التي تقرأها الآن يا عزيزي ..

فكرت في كتابة قصة، قصة فريدة، لا تختص بزمان أو مكان..

لذلك قررت أن أجعلك قصتي أيها القارئ، أنت تعلم علم اليقين أنني كتبتها منذ مدة، لكنها تخاطبك وتتفاعل معك بشكل مباشر.. ستستغرب الأمر، هذا إن لم تبتسم، وقد يعتريك فضول لمعرفة ما قد تأتي به الأسطر القادمة.. صراحة عندما كتبت هذا السطر الذي أنت فيه أقسم أنني لم أكن أعرف ما سأكتبه في الذي يليه، مثلك تماما في هذه اللحظة، فقط سرقت انتباهك للحظة من الزمن لكي نصنع معا قصة من لا شيء.. اعذرني، فعندما لا أجد شيئا لأفعله؛ أكتب مثل هذه الترهات التي تقرؤها الآن يا عزيزي..